بنى الوعي والخطاب الديني

(الجزء الأول)

بنى الوعي ومقارنة الأديان

أ.د. عبد الرؤوف بابكر السيد

AVATAR
AVATAR For Printing & Publishing أفاتار للطباعة والنشر

• الكتاب: **بنى الوعي والخطاب الديني**

• الجزء ١ (بنى الوعي ومقارنة الأديان)

• المؤلف: أ. د. عبد الرؤوف بابكر السيد

• التصنيف: دراسة مقارنة

• الطبعة: الأولى نوفمبر ٢٠٢٤

• القطع: ٢١×١٥ سم

• عدد الصفحات: 242

• رقم الإيداع: ٢٠٢٤/٢٨٣٨٠

• الترقيم الدولي: ISBN: 978-977-6878-66-2

• الناشر: أفاتار للطباعة والنشر

• تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناشر

• حقوق الطبع محفوظة: للمؤلف

المحتوى يُعبر عن رأي المؤلف فقط ولا يُعبر بالضرورة عن رأي دار النشر

ت: 01271131980 (2+) بريد إلكتروني: z. a. senna@hotmail. com

فيسبوك: #أفاتار_للطباعة_والنشر #بيت_المبدعين_العرب

مُقيد بسجل الناشرين المصريين برقم (١٠٥٩)

بنى الوعي والخطاب الديني

(الجزء الأول)

بنى الوعي ومقارنة الأديان

دراسة مقارنة بين الأديان

أ.د. عبد الرؤوف بابكر السيد

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٤ م

المحتويات

تقديم 4

مقدمة 13

• **الفصل الأول: البنية سابقة للخطاب** 22

المبحث الأول: العقل ماهيته ودوره 23

المبحث الثاني: مفهوم البنية وبنى العقل 36

المبحث الثالث: محاربة البنية لمن يعارض عصبيتها 52

• **الفصل الثاني: النص الديني والخطاب المركب** 97

المبحث الأول: مخاطبة النص الديني لبنى الوعي المختلفة 98

المبحث الثاني: العلامات ودورها في نشأة الأديان 104

المبحث الثالث: الأمثال وأثرها في مخاطبة بنى الوعي 109

• **الفصل الثالث: ترسيخ القيم وارتباط الإيمان بعمل الصالحات** 117

المبحث الأول: الدعوة لعمل الخير في الأديان 118

المبحث الثاني: الدعوة لرعاية وكفالة الأيتام 127

المبحث الثالث: الوصايا والتوجيهات الإلهية 129

• **الفصل الرابع: توظيف الخطاب الديني** 143

المبحث الأول: قضايا موروثة فهما وتطبيقا 143

- التعدد في الزواج عرف جاهلي سعى الإسلام للحد منه ... 144

- أحاديث شق الصدر 163

- السهو عن الصلاة ليس تأخيرها 177

- القطع وليس التقطيع عقوبة السارق 182

- توظيف الدين لصالح العرف في مدة حمل الجنين 193

- ليس من نص يحرم المصافحة 198

المبحث الثاني: إسلام التسامح في كتاب الله وإسلام العنف لدى الفقهاء 207

- الناسخ والمنسوخ صناعة الفقهاء 227

***

تقديم

لماذا لم تستطع الشعوب العربية والإسلامية إنتاج علم وتكنلوجيا أواستحداث ثورة كالثورة الفرنسية التي ثارت على بنية وعيها وطرحت مفاهيم وروى بنية وعي بديل ؟ بمعنى آخر لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي والإسلامي؟ يجيب على هذا السؤال هاشم صالح قائلاً "أصبح واضحاً لكل من يرى ويسمع أن سبب الانسداد الحضاري الذي يعانيه العالم العربي والإسلامي ككل يعود إلى الانغلاق الكامل داخل يقينيّات القرون الوسطى التي تتخذ صفة الحقيقية الإلهية المقدسة التي لا تناقش أو تخضع للعقل بأيّ شكل." [هاشم صالح،2007-2011. الانسداد التاريخي- لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي، دار الساقي]

تصدّى لهذه المعضلة أ.د. عبد الرؤوف بابكر السيد مستخدماً منهج التحليل الفاعلي موضحاً أنّ الانسداد الحضاري والانغلاق الكامل داخل يقينيّات القرون الوسطى ناجم عن شروط اجتماعية حضاريّة بعينها تسوّغ سيادة بنية مغلقة للعقل بحكم خصائصها التكوينيّة هي بنية العقل التناسلي. في ضوء منهج التحليل الفاعلي الذي يُعنى بالكشف عن فاعلية المجتمعات والأفراد والنصوص من خلال الاستجابة لتحدّيات الوجود الحضاري لا تتعلق المشكلة بالنص المقدس (القرآن الكريم) بقدر ما تتعلق بتدنّي أو ارتقاء فاعليّة من يتعامل أو يقرأ النص المقدس. السبب هو أنّ النصوص

المقدّسة لأسباب اجتماعية حضاريّة كي يكتب لها البقاء عبر التاريخ يصبح من الضروري أن تكون مركّبة أو شاملة أو حمّالة أوجه تخاطب جميع بنى العقل المتدنيّة الفاعلية والمرتقية الفاعلية. وبما أنّ بنية العقل سابقة للنص ومنتجة لدلالته يتماهى القارئ مع النصّ وفقاً لبنية عقله ومستوى فاعليّته. لذا تجد أقليّة من المسلمين قادرة على تجسيد المقاصد النهائيّة للنص المقدّس من تسامح ومحبة وعطاء شامل، بينما الغالبية ترزح تحت وطأة البنى متدنية الفاعلية بما تختصّ به من أنانية وعنف واستبداد ومناهضة للإبداع. عندئذ يصبح من المهم إعطاء نبذة حول التحليل الفاعلي والتعرف على عبد الرؤوف بابكر وأهمية النتائج التي توصّل إليها في هذا الكتاب القيّم.

ما هو التحليل الفاعلي؟

من ناحية التنظير التحليل الفاعلي نظريّة في طبيعة الإنسان بوصفها فاعليّة. يقصد بالفاعلية الإنتاج والإثراء الشامل للحياة، تعني الفاعليّة على وجه التحديد الإبداع والإيثار. من الناحية المنهجية التحليل الفاعلي منهج يُعنى بفاعلية الأفراد والمجتمعات والنصوص، وذلك بالكشف عن ديناميات نمو وتفاعل بنيات العقل من خلال الاستجابة لتحديات الوجود الاجتماعي والحضاري. ويقصد ببنية العقل النسق أوالنواة التوليديّة للوعي التي تحدّد

فكرة الإنسان عن نفسه ومنحى استجابته وتفاعله مع العالم. ويُقصد بالوعي المحتوى المعرفي السلوكي للإنسان.

الطبيعة الإنسانيّة:

الإنسان ذو طبيعة تتميميّة: داروينيّة عند تدنّي الفاعليّة طابعها الأنانية والعنف والاستبداد، وإنسانيّة عند ارتقاء الفاعليّة طابعها الحب والإبداع والعطاء الشامل. هذه الرؤية للطبيعة الإنسانية تتجاوز الداروينيّة التي حصرتها في الأنانية والعنف، ولم تستكنه التتميميّة والفاعليّة، كما تتجاوز المدارس الاجتماعية التي تلغي الفطرة الداروينيّة.

تركيب العقل:

أدّى تطوّر معماريّة الدماغ البشري إلى أن تتنزّل زيادة الفاعليّة من خاصيّة تتعلّق بتطوّر الشعبة إلى خاصيّة تتعلّق بتطوّر النوع البشري، ومن خاصيّة تتعلق بتطوّر الجماعة إلى خاصية تتعلق بتطوّر الفرد البشري. عليه تخضع الطبيعة الإنسانية لمبدأ الكفاءة التناسلية مثلما تخضع لمبدأ الفاعلية. عندئذ أصبح الإنسان ناتج فاعليّة ومنتج فاعليّة، الأمر الذي يفسّر زيادة معدّلات التطور الاجتماعي الثقافي بالقياس للتطور الجيني. كما أدّى تطوّر معماريّة الدماغ إلى أن تتجسّد الفاعليّة من خلال بنيات للعقل تدعم الغرائز والاحتياجات الأساسيّة للبقاء. فأصبح العقل البشري يتركّب من ثلاث بنيات: أ. بنية العقل التناسلي (القاعدي) التي تعطي الأهميّة والأولويّة

للبقاء عبر التناسل، فيعي الإنسان ذاته كائنا وظيفته التناسل. ب . بنية العقل المادّي (البرجوازي) التي تعطي الأولويّة لإنتاج واستحواذ الخيرات الماديّة، ومن ثمّ يعي الإنسان ذاته كائنا ماديّا واقتصاديّا. ج . بنية العقل الخلاّق والتي يعي الإنسان من خلالها ذاته كائنا خلّاقاً وظيفته الإنتاج والإثراء الشامل للحياة. تسود البنية التناسلية حينما تكون الوسيلة الوحيدة المتاحة بغية التغلب على ارتفاع معدّلات الوفيات هي زيادة معدلات المواليد، وحينما تكون القوّة العضلية للرجال والنساء هي مصدر الأمن الاجتماعي والغذائي. تسود البنية المادّية حينما توفّر البنية التناسلية البشر كميّاً فينتج تحدّي وهاجس جديد هو توفير المأكل والمأوى لملايين الأفواه الفاغرة، وحينما تتضامن البنية المادّية والخلاقة في التصدي للتحدّي. تُعتبر كلاً من البنية التناسليّة (القاعديّة) والبنية الماديّة (البرجوازيّة) متدنّية الفاعليّة، لأنّ برامجها للعطاء مغلقة، تحصر الحب والعطاء في إطار الفرد وأسرته وربّما عشيرته أو طائفته، بينما البنية المفتوحة مرتقية الفاعليّة هي بنية العقل الخلاّق. كلّ فرد من أفراد المجتمع يحتاز البنيات الثلاث. لكلّ بنية عقل مرجعيّتها المعرفيّة والقيميّة ومفهومها للذات التي تحفّز لأجل تحقيق مشروع البنية. تجدر الإشارة إلى أنّ أهمّ ما يميّز بنيات العقل هو حراكها، كان ذلك على صعيد الفرد أم المجتمع. لذا فإن سيادة البنية لا تكون كليّة، كما لا تكون مطلقة غير قابلة للتحوّل.

سوسيلوجيا الفاعلية وحركة التاريخ:

البناء الاجتماعي هو نسق تراكب بنيات العقل من خلال سيادة إحداهن. ينجم عن ذلك بناء اجتماعي تناسلي أو برجوازي أو خلاق. عندئذ يكون التغيّر الاجتماعي هو الانتقال من بنية سائدة إلى أخرى وفقاً لآلية نمو الفاعلية، وحينما تتوفّر القوى الاجتماعيّة الجديدة الحاملة للوعي البديل. هكذا يتحقق حراك وتاريخانيّة البناء الاجتماعي.

عليه يتولّد المسار العام لحركة التاريخ البشري من خلال العلاقات الديناميكيّة للبني الاجتماعية، وهو من ثمّ ليس مساراً لاطراد الحتميّة بقدر ما هو مسار لتواكب الفاعليّة والقصور في فضاء الاحتمال. فتنشأ عن ذلك احتمالات مختلفة لحركة المجتمع: الاستقرار والتوازن، النهضة والتطور أو الانحطاط والاضمحلال. هناك نوعان من التحوّلات الاجتماعية : يحدث النوع الأول حينما تفشل بنية العقل السائدة – التناسلية مثلاً في التصدّي لبعض التحديات الأساسية فتتصدّع، وكنتيجة لذلك تنبري بنية العقل الخلاق لإزالة الخطر، فتحدث النهضة الحضاريّة من خلال تجاوز بنية العقل الخلاق للمعوّقات الاجتماعيّة الكائنة. وبما أنّ حلّ المشكلات قد تمّ في فضاء تناسلي وأن البنية السائدة لم تستكمل مهامها الحضاريّة بعد، فإنها تستعيد تدريجيّاً زمام المبادرة التاريخية.

وعادة ما ينجم عن هذه العمليّة الانحطاط الحضاري لأن البنية التناسلية العائدة على درجة من الفاعلية أقلّ من بنية العقل الخلاق.

الصيغة الثانية للتحولات الاجتماعية تنشأ حينما تستنفد بنية العقل السائدة مهامها الحضاريّة، وكنتيجة لذلك تنشأ تحدّيات جديدة تستوجب سيادة بنية بديلة وفقاً لجاهزيّتها. في هذه الحالة ينتقل المجتمع من فضاء جزئي محدّد إلى فضاء آخر، وهو ما حدث للمجتمعات الأوربية بانتقالها من الفضاء الجزئي التناسلي إلى الفضاء البرجوازي. في هذه الحالة تأخذ الحضارة في الصعود والازدهار حتى تتمكّن البنية الصاعدة من السيادة وفرض سلطانها. وبفرض سطوتها يعمّ الاستقرار، وتكفّ عن التطور، و تنجح في توظيف بنيتي العقل الخلّاق والتناسلي لمهامها وأغراضها. كما تنجح في تهميش المنظومة القيمية لبنية العقل الخلاق. لذا فإنّ نقد ما بعد الحداثة للحداثة تمّ في غياب الوعي بديناميكيّة بنيات العقل، حينما اختزلت ما بعد الحداثة مفهوم العقل في عقلانية بنية العقل البرجوازي. يلاحظ أنّ النموذج الفاعلي لحركة التاريخ يستوعب في داخله النماذج الأساسيّة لحركة التاريخ: النموذج الدوري والنموذج الخطّي ونموذج الاستقرار والتوازن.

يقتضي تطبيق منهج التحليل الفاعلي على الظواهر السياسية، إذا أخذنا علاقة أنظمة الحكم بالاستبداد نموذجاً، تعريف نظام الحكم وظيفيّاً بأنّه آلية لتحقيق مهام وأغراض بنية العقل السائدة. عندئذ ينشأ نظام الحكم عندما

تنشأ السلطة، وتنشأ السلطة نتيجة لحاجة المجتمع للأمن بكافّة مستوياته، الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة. عليه إذا سادت بنية العقل التناسلي استمد نظام الحكم سلطته وشرعيّته وخصائصه النوعيّة من البنية التناسليّة السائدة التي غدت تشكّل عصب نسيج البناء الاجتماعي. فيصبح نظام الحكم تناسلياً يرعى النسل والتناسل، وتصبح صلة القرابة مصدراً للقانون والنفوذ عوضاً عن الدستور (أوالمواطنة)، كما هو الحال في النظام الملكي أوما شابهه. عليه لا يملك النظام إلّا أن يكون استبدادياً. أمّا إذا سادت بنية العقل المادّي(البرجوازي)، فإنّ البناء الاجتماعي سوف ينتج سلطة اقتصاديّة تسود من خلالها دكتاتوريّة رأس المال وديكتاتوريّة السوق. أمّا إذا سادت بنية عقل خلّاق فأنّ طبيعة السلطة نفسها سوف تتغير من السيطرة إلى المشاركة بناء على انفتاح بنية العقل وما يترتّب عليه من تساوق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة. نخلص إلى أنّ البناء الاجتماعي هوالذي يحدّد طبيعة نظام الحكم وليس الفرد الحاكم، وهذا يفسّر التشابه في أنظمة الحكم حينما تتشابه البناءات الاجتماعية، كما هو الحال في الدول العربيّة أو كما هو الحال في الدول الغربيّة.

أ.د. عبد الرؤوف بابكرالسيّد، شاعر وأديب ومفكّر له العديد من الدواوين والإصدرات منها: مجموعة (الحروف) ومجموعة (المفردات) وكثير من المصنّفات العلميّة والثقافيّة والإبداعيّة، كما ساهم في تطوير وإثراء التحليل

الفاعلي حين قام بتدريس التحليل الفاعلي ضمن مناهج النقد الأدبي المعاصر بقسم اللغة العربية، جامعة التحدّي(حاليّاً جامعة سرت)، وأشرف على العديد من رسائل الماجستير حيث استخدمت منهجية التحليل الفاعلي في دراسة النصوص الأدبيّة كما نالت الطالبة ندى عبدالسميع شهادة الماجستير من جامعة قاريونس ببنغازي وهي تستخدم المنهج في دراستها حول حرية التفكير والتعبير في الوطن العربي 2001، والطالبة هدى العبيدي شهادة الدكتوراة من جامعة الفاتح 2009، وكان موضوعها "شعر الرفض والتمرد – عبد الرؤوف بابكر وأمل دنقل – دراسة في ضوء منهج التحليل الفاعلي." اقتصرت مساهمتي في إطار تطبيق التحليل الفاعلي على النصوص الأدبية في مقاربة الرواية، بينما توسّع عبد الرؤوف في تطبيق المنهج في قراءة النصوص الشعرية والنصوص الدينيّة، كما صدر له كتاب" النص الأدبي – الاستلاب والفاعلية"، منشورات جامعة التحدي.وله من المنجزات – فاعليّة الأدب الأفريقي – وممارسة نقديّة لفاعليّة النص، إلى غير ذلك من الإصدارات كما ذكرنا.

لذا لقد سررت وسعدت كثيراً حينما تصدّى كاشفاً عن الأسباب العميقة التي وقفت حائلاً دون نهضة الشعوب العربية والإسلامية، التي تتمثل في سيادة الوعي التناسلي، لأنّ الوعي التناسلي يعتقل العقل والجسد والجنس في التناسل ويناهض الإبداع، وذلك بحكم طبيعة مرجعيّته المعرفيّة والقيميّة

ووعيه للذات. يتجاهل الوعي التناسلي المقاصد النهائيّة للنص الديني التي تدعو للمحبّة والعطاء الشامل وينصبّ اهتمامه في توظيف الخطاب الديني تعزيزاً للتناسل، فيجعل من تكوين الأسرة غاية الحياة وليس وسيلتها. حين نقارن بين نهضة الشعوب الأوربيّة وفشل مشروع النهوض العربي الإسلامي نجد من أهم إنجازات مشروع الحداثة الغربي هو تشكّل المواطن، الشخص الذي يتجاوز ولاؤه للوطن ولاءه للقبيلة أو الطائفة، لذا فإنّ المواطن يتحلّى بدرجة أعلى من الفاعلية وانفتاح الأنا بالقياس للإنسان القبلي أو الطائفي. لقد تحقّق المواطن أوربيّاً من خلال السوق والمصنع ومشروع التنوير، ومن خلال نشوء طبقة برجوازية منتجة، تدفعها حاجتها للإنتاج إلى الاستعانة والتحالف مع بنية العقل الخلاق بغية إنتاج العلم والتكنلوجيا. المواطن هو التربة الخصبة التي تنمو فيها الديمقراطيّة كآلية لتحقيق الحريّة والعدالة والمساواة. تتمثل الآليّة في أنّ المواطنة هي أساس الحقوق الدستوريّة، التداول السلمي للسلطة، وفصل السلطات التنفيذيّة والتشريعيّة والقضائيّة. على العكس من كلّ هذا نجد أنّ الطبقة البرجوازية التي أخذت تطلّ برأسها في العالم العربي والإسلامي برجوازية طفيليّة بحكم يفاعتها وبحكم هيمنة الإمبريالية العالميّة والشركات عابرة للقارات. البرجوازية الطفيليّة لا حاجة لها أن تتحالف مع بنية العقل الخلّاق، بالمقابل تتحالف مع بنية العقل التناسلي (القوى التقليديّة في المجتمع) فيتكرّس الانسداد التاريخي.

الشيخ محمد الشيخ

2017\6\1

مقدّمة

الأديان تدعو إلى المحبّة والتسامح ونحن نمتلئ بغضاً وكراهية لبعضنا، وتدعو إلى صلة الرّحم وإلى فعل الخير والعمل الصالح ورعاية اليتامى ونحن نستأثر بالخير لأنفسنا ونمسك يدنا عن فعله، بل ونباعد عنه الآخرين، تدعونا لمحبّة الآخر ونحن نحبّ ذواتنا، وتدعونا إلى أن نفي بالكيل والميزان وأن نقيم العدل ونقسط فيه ونحن تغرينا الربحيّة ونمارس الغشّ والخداع ونترك للفساد مساحات هائلة كي يتمدّد فينا، تدعونا إلى التكاتف والتعاضد لنكون كالجسد الواحد ونحن متفرّقون شيعاً وأحزاباً ومذاهب وطوائف، تدعونا إلى السلام وإلى إفشاء السلام والابتسام في وجه الآخر ونحن مقطّبون وجوهنا ونتحدّث بغلظة وجفاء حتّى في ممارستنا للدعوة لدين الله مفتقدين الحكمة والموعظة الحسنة، تحذّرنا من أن يقتل بعضنا بعضا، وكلّ تاريخ المجتمعات المتديّنة عنصريّة ضدّ الآخروبطش وتنكيل واستباحة وسفك للدماء. وديننا يدعونا لعدم الاعتداء على الآخرين وأنّ الله لا يحبّ المعتدين ونحن باسم الدين نفجُر في خصامنا ونقتل وندمّر على امتداد أراضي المسلمين. لا نقول أيّ دين هذا ؟ بل نقول أيّ عقل هذا الذي يعمل ضدّ توجيهات خالقه وتوجّهات دينه. فديننا يدعونا إلى احترام الأديان الأخرى ونحن نشنّ العداء عليها، وعلى معتنقيها وفي حالة الضعف نضمره.

ذلك كلّه وغيره الكثير ما دفعني إلى إعداد هذه الدراسة حول بنى الوعي التي تستوعب الأديان بغير مقصدها، وتفهم النصوص وفق بنيتها، والخطاب الديني بدلاً من أن يُخرج الناس من دائرة البشريّة القائمة على العنف إلى دائرة الإنسانيّة وأفقها الرّحب، نجد بنية الوعي السائدة هي التي توظّف نصوصه لصالح برامجها .

فإذا كان البرّ حسن الخلق، وإذا بُعث محمد صلى الله عليه وسلم ليتمّم مكارم الأخلاق التي جاءت بها الأديان السابقة فأين ذلك من هذا العداء المستحكم بين فرق وشيع وأحزاب ومذاهب وطوائف من دين واحد تصل حدّ التكفير والقتل بأبشع صوره وبين أتباع دين ضدّ أتباع دين آخر وبعصبيّة وتشدّد وتطرّف مقيت. ونحن جميعنا نعلم أن لوشاء الله لجعل جميع من في الأرض مؤمنين موحّدين، وفي ذات الوقت يدعو الإسلام إلى احترام الأديان الأخرى وحوار معتنقيها وجادلهم بالتي هي أحسن، وأن نقول للناس حسنا، لكنّ بنية الوعي السائدة والسابقة في وجودها للخطاب الديني تنتصر عليه وتوظّفه لمصلحتها وتوجهه لتنفيذ برامجها عن طريق تأويل النصوص، وإن استعصت عليها سعت إلى توظيفه لامتلاك السلطة دينيّة كانت أم سياسيّة أم اقتصاديّة.

ونحن إذ نقدم على قراءة النصوص الدينيّة في دارسة مقارنة بين الأديان التوحيديّة نستخدم منهج التحليل الفاعلي لإجلاء الصورة ووضوحها والإجابة

عن كثير من التساؤلات حول ظاهرة الدين الذي يجافي الخلق، وبين الدين الذي يدعو لمكارمه، وكيف تلقّته المجتمعات وكيف انتصرت عليه بتوظيفه لعُرفها ومشاريعها ومهامّها،وعضّدت به أهدافها وغاياتها عبر العصور وحتّى الآن. وكان حتما استخدام المنهج التفكيكي للخطاب الديني ومن ثمّ المنهج المقارن لجلاء الخطابات التي جاءت من مشكاة واحدة.

وإذا كان الإشكال ليس في الخطاب الديني وإنّما في التلقّي لهذا الخطاب، فذلك يعني أن الإشكال في العقل المستقبِل له، لذا كان لابدّ أن نؤسس لهذه الدراسة بتسليط الضوء على العقل ماهيّته ودوره ثمّ إلى تركيبه من بُنى وعي كما حدّدته نظريّة "الفاعليّة" التي أسهم بها العالم السوداني الشيخ محمد الشيخ ودراسة مفهوم البنية وبُنى الوعي، لنصل إلى أسس عمل كلّ بنية وكيفيّة محاربتها لكلّ من يعارض عصبيّتها أو يتضادّ مع أهدافها وبرامجها، وكيف توظّف الخطاب لصالحها. وذلك جميعه ما شكّل الفصل الأوّل من هذه الدراسة والذي جاء تحت عنوان " البنية سابقة للخطاب"

وبما أنّ الخطاب الديني خطاب مركّب موجّه لجميع بنى الوعي لدى الإنسان فكان لابدّ من التدقيق في كيف خاطبت الأديان هذه البُنى وحاولت الارتقاء بالبُنى المغلقة منها وتدعيم البنية المفتوحة، وكيف ركّز النص القرآني على إبراز العلامات والآيات الكونيّة لإقناع البشر بوحدانيّة الله، باعتبار أنّ علم العلامات أو ما يطلق عليه " السيميولوجيا " هي اللغة

الأكثر إقناعا، وتتجاوز اللغة الهجائيّة بشموليتها بل تشكّل اللغة المنطوقة جزءاً منها. كما اهتمّت كافّة الخطابات الدينيّة على استخدام الأمثال وسيلة للإقناع فقد ضرب الله الأمثال في خطابه لبُنى الوعي المختلفة من أجل التسليم بوحدانيّته جلّ شأنه، وهي ذات أثر في بُنى الوعي التي تتمثّل تلك الأمثال التقريبيّة لوعيها.وذلك جميعه شكّل فصلاً ثانيا جاء تحت عنوان "النصّ الديني والخطاب المركّب".

كما سعت جميع الأديان إلى الدعوة لعمل الخير وأفردت مساحات واسعة من خطابها تحثّ على ذلك وتربطه بالإيمان، كما دعت جميعها للدعوة لرعاية اليتيم وكفالة الأيتام لعلم الله سبحانه وتعالى بانغلاق بنى الوعي على نفسها وعدم الاهتمام بالغير خاصّة إذا كان هذا الغير فاقداً للرعاية المفترضة بفقده لوالده ومعيله، لذا فقد أفردت الأديان في خطابها وخاصّة القرآن الكريم مساحة ليست باليسيرة لمنح اليتيم رعاية تعوّضه هذا الفقد، وكثير من الوصايا والتوجيهات الإلهيّة التي انتشرت عبر سور القرآن الكريم وعبر التوراة والإنجيل، لذا فقد كان لزاماً إفراد الفصل الثالث لتناول ذلك وإبرازه فجاء تحت عنوان" ترسيخ القيم وارتباط الإيمان بعمل الصالحات ".

ثمّ انتقلنا إلى الفصل الرابع والذي جاء تحت عنوان " توظيف الخطاب الديني" متناولاً في مبحثه الأوّل بعضاً من القضايا الموروثة فهماً وتطبيقا ومنها ظاهرة تعدّد الزوجات لدى المسلمين، وأحاديث شقّ الصدر، ومعنى

السهوعن الصلاة، وقطع يد السارق، وتوظيف الدين لصالح العرف في مدّة حمل الجنين، والمصافحة. وفي مبحثه الثاني تناولت " إسلام التسامح في كتاب الله وإسلام العنف لدى الفقهاء. وقادنا ذلك لإفراد مبحث حول الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم.

ثمّ الفصل الخامس الذي جاء بعنوان " العصبيّة والحيلولة دون التسامح بين الأديان " فقد تناول المبحث الأوّل فيه التوافق بين الشرائع السماويّة ، وفي المبحث الثاني توارد القصص عبر النصوص الدينيّة .. التوافق والاختلاف والفاعليّة، عرضنا فيه بدءاً من قصّة الخلق، وخلق آدم وزوجه وقابيل وهابيل ثمّ بقيّة القصص التي وردت في التوراة وفي القرآن الكريم للأنبياء والمرسلين.

أمّا الفصل السادس فقد قمت بتخصيصه للتشريع أو آيات الأحكام في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم. ومقارنة القصص القرآني الواردة في الكتب المقدّسة – التوافق والاختلاف، وخصصت له الجزء الثاني من هذا الكتاب.

تلك مجمل القضايا التي تناولتها في هذه الدراسة التي تتبّعت فيها النصوص الإلهيّة وحصرها وتبويبها حسب الأغراض وماهدفت إليه، حيث أخذت حيّزاً كبيراً من هذه الدراسة، كما أخذت مساحة للعمل على تفكيكها ونظمها وفق مراميها وأبعادها التوجيهيّة. وقد حرصت خلال هذه الرحلة البحثيّة على

إبراز دور التلقّي لهذه النصوص المقدّسة وكيف استوعبتها كلّ بنية وعي بما ينسجم مع فهمها وتوظيفها لصالح برامج البنية التي خاطبتها هذه النصوص، كما حرصت على إبراز دور الفقهاء في النقل استنادا إلى عصر التدوين الأوّل الذي ترك بصماته في الفهم العام لإنساننا المعاصر، وتولّدت عنه كلّ هذه الفرق والمذاهب والطوائف بل والمتشدّد منها والمتطرّف كما استندت عليه ظاهرة الإرهاب التي أبرزت صورة دمويّة ليس لها صلة بالخطاب الديني الذي دعا للتسامح والتآخي والرحمة والتكافل والعمل الصالح وفعل الخير، وركّز على المعاملة بين الناس بالمحبّة وحسن الخلق والقول الحسن. فأن يقوم متديّن بملاعنة متديّن آخر من دين آخر أو من نفس الدين مختلف معه فكريّاً أو مذهبيّاً فذلك لا يدلّ على عيب في هذه الأديان بل في معتنقيها، فبمجملها هي طريق هداية لسلوك قويم، ولكن بنية الوعي التي نحتازها هي بنية قصور تتحفّز دائما لمهاجمة الآخر قولاً وفعلاً، بنية لم يردعها دين اعتنقته لأنّها غير قادرة على الالتزام بتوجيهاته، بعضهم يترك دينه نتيجة ممارسات وسلوك المعتنقين لهذا الدين، وبعضهم يحبّ هذا الدين فيعتنقه لاقتناعه وإعجابه بسلوك من تعرّف عليهم من معتنقيه. والذي يفارق الدين لم يستطع أن يصمد أمام من يحمل أسلحة التكفير والاتهام بالزندقة والإلحاد، ويشهر عليه سلاح الردّة فيحكم عليه بالتصفية الجسديّة نيابة عن الله.

وبنظرة إلى تاريخ الأديان نجد البشر وقد سفكوا من الدماء وأزهقوا من الأرواح ما يندى له جبين الإنسانية، وبنظرة إلى ما يحمله أغلب المتديّنين ضدّ بعضهم سواء من أديان أخرى أو من ذات الدين نجد ألسنة لهب من الكراهية والحقد تذيب الجبال لو وجّهت إليها، ولا يحول بينهم وبين بعضهم سوى قوانين وضعها الإنسان لإلزام المجتمعات بالتعايش السلمي، ودونك من الأمثلة المعاصرة تلك الدول التي دمّر بنيتها الأمنية التدخل الخارجي ونسف آليّات تلك النظم فانهارت وانداح الحقد والكراهية يحصد الأرواح وباسم الدين. في وقت كان ينبغي أن تكون الأديان هي الواعز والحامي حاملة القيم السامية التي تلتزمها المجتمعات حتى إذا ما انهارت الأنظمة شكّلت لهم سياجا حامياً من الانفلات الأمني والعدوانيّة.

نعود إلى أنّ الخلل يكمن في أنّ المجتمعات تحتمي ببنية الوعي السائدة التي تقرأ بها النصوص الدينيّة وتوظّفها لمصلحتها وتنفيذ أغراضها، الخلل ليس في الدين بل في قارئ النص الديني، ليس في قيم النصوص الدينيّة بل في مرتكزات بنى الوعي، الخلل يتّضح من سلوك الأفراد في هذه المجتمعات التي استوعبت التراث الديني على أنّه نصير لها وحام لها ومن منطلق عصبيّتها لم تجعل الله مقارباً لها بل مفارقا، وبدلاً من خوفهم من الله أضحوا يخافون عليه ويجردون سيوفهم للدفاع عنه ويسحقون خلق الله ويقهرونهم في سبيل الله كما يزعمون، ويؤدّون شعائر الله مجرّدة عن أبعادها

ومضامينها وغاياتها ومقاصدها، طقوساً جامدة لا حياة فيها ولا أثر لها في سلوكهم.

فأن تكون هناك جهة واحدة في المجتمع هي التي تفسّر وتفتي سواء كنيسة أو مجمعاً فقهيّاً، فذلك ما ولّد طبقة سمّيت برجال الدين أوالفقهاء، ووظفتها البنية السياسية لصالحها فانحرفت بغايات ومرامي وأهداف النصوص الدينيّة، وأحيانا تسعى هذه الطبقة بأن تستولي هي على السلطة فيبرز الفساد وينتشر،أوأن يترك الأمر لكلّ من يقرأ هذه النصوص فيتولّد فهما متضارباً للنص ومتناقضاً في بعض الأحيان لأنّ القراءة نابعة من بنية الوعي التي يحتازها الفرد. ومن هنا كان هذا الإشكال الذي وضع معتنقي الأديان في موقف يدافعون فيه عن أنفسهم بشتى الوسائل بما في ذلك سلاح التكفير والقتل والإرهاب واستباحة الآخر. وحقيقة هذا القتل وهذا الإرهاب وهذه الاستباحة للآخر ما هي إلا نتاج طبيعي لبنية وعي القصور التي لا تزال تضرب بجذورها في المجتمعات التناسلية والبرجوازيّة. وبنى الوعي المتدنّي تشعر أنّها تدافع عن دينها وعن الله ، والله قادر على أن يدافع عن ذاته جلّ جلاله وعن دينه، وقادر على أن يدمّر مجتمعات ترزح تحت الفساد، وقادر سبحانه على أن يخسف بمن يشاء الأرض، كما هو ثابت في الكتب المقدسة.

لقد هالني هذا التعصب الديني الذي أخذ يهدّد المجتمع البشري، وبدأتُ في قراءة نصوص الأديان الرئيسيّة السائدة الآن والتي لها كتب مقدّسة تحتوي على نصوص موجهة لتقويم السلوك البشري والارتقاء به إلى سلوك إنساني، فوجدت جميع تلك النصوص متقاربة وهي لا تعدو كونها موجّهات تحمل قيماً ووصايا وخلقاً حسناً، وأسلوب حياة آمن. ولا يقتضي الأمر أن ألزم الآخر بأن يهتدي وفق ما أراه، ولو كان ذلك يجدي فالوعظ والإرشاد عبر أيام الجمع للمسلمين والسبت لليهود والأحد للمسيحيين لم يستطع أن يغرس قيم هذه الأديان بما يرتقي بالإنسان. فإذا بي أفتقد السلوك الذي هو وحده الذي يمكن أن يؤثّر فيصبح المرء قدوة للآخر لا منفّراً له عنه. كذلك وجدت اعتداء من بنية الوعي التي وظّفت الدين لصالحها كيف استهدفت كلّ من استخدم بنية وعي أخرى غير السائدة سواء ما مارسته الكنيسة من طغيان خلال العصور المظلمة في أوروبا أو ما تقوم به جماعات الإسلام السياسي التي سعت ولا زالت لإحكام قبضتها باسم الدين على المجتمعات رغم هذه الاختلافات الكبيرة في فهم نصوص هذا الدين. والله من وراء القصد.

أ. د. عبدالرؤوف بابكر السيّد

الخرطوم في ديسمبر 2016م

الفصل الأوّل: البنية سابقة للخطاب

المبحث الأوّل: العقل ماهيّته ودوره.

المبحث الثاني: مفهوم البنية وبُنى الوعي.

المبحث الثالث: محاربة البنية للمعارضين لها والمنفلتين عنها.

المبحث الأوّل

العقل ماهيّته ووظيفته ودوره :

تساؤلات جعلت من العقل محور دراسات حوله وفيه وبه، ماهو العقل؟ ما طبيعته ؟ مدى ثباته وتطوّره ؟ وهل هو فطري غريزي أم مكتسب؟ وهل لكلّ مجتمع عقله الخاص أم الجميع مشتركون في عقل واحد؟ كيف يعمل؟ كيف يستوعب؟ ما هو دوره لدى الفرد ولدى المجتمع؟ وهل العقل الفكري والفلسفي هو ذاته العقل الديني ؟ وتتناسل الأسئلة بشكل مهول جدّا، احتار فيها المفكرون والفلاسفة ورجال الدين فوقفوا مواقف متباينة، وظلّت الإجابات عن هذه الأسئلة وغيرها تشكّل منذ القدم بؤرة اهتمام الجميع .

لقد عرف الإنسان نفسه عن طريق العقل مستعيناً بالحواسّ التي حملت على عاتقها تزويده بمدخلات منذ طفولته الباكرة وفي شبابه وحتّى شيخوخته، كما عرف خالقه كذلك عن طريق العقل حين عجز عن تفسير الظواهر الطبيعيّة ووقف مذهولاً وعاجزاً أمام حقيقة الموت، وشقّ طريقه في هذه الحياة فرداً وجماعة مستخدماً هذا العقل ليسود على بقيّة الكائنات، فما هو العقل هذا الذي يُعدّ جوهر الإنسان ؟ وكيف ينبثق عنه الوعي ؟.

في اللغة العربية: مصدر عقل يعقلُ، وأصل مادّته الحبس والمنع، وسمّي عقلا لأنّه يعقل الإنسان أي يحجره عن الوقوع في التهلكة، ولذا سمّي أيضا

حِجراً لأنّه يحجره عن ارتكاب الخطأ، وسمّي كذلك نُهى لأنّه ينهى صاحبه عن فعل ما لا يحمد، وقال بعضهم إنّه مشتقّ من المعقل، وهو الملجأ فكأنّ الإنسان يلجأ إليه في أحواله.

وفي الاصطلاح يطلق العقل على معانٍ منها : الغريزة المدركة التي ميّز الله بها الإنسان عن سائر الحيوان، وهي التي بفقدها يسقط التكليف الشرعي. كما يطلق على المعارف الفطريّة والعلوم الضروريّة التي يشترك فيها جميع العقلاء. كما يطلق على إدراك المعارف النظريّة ومنه جرى إطلاق العلم على العقل حيث يسمّى فاقد هذا جاهلاً. ويطلق كذلك على العمل بمقتضى العلم ويسمّى العقل على الإطلاق معرفة وبصيرة.

منذ القدم كان الفلاسفة والمفكرون يمعنون النظر في هذا (العقل) واختلاف استيعابه بين فرد وآخر أو بين مجموعة وأخرى تجاه هذا العالم ومكوّناته ومساره وتفسيره لظواهره. وإزاء محدوديّته لدى الفرد يذكر مؤرخوالفلسفة أنّ **هيراقليطس** أوّل من قال بفكرة "اللوغس" أو "العقل الكوني" فلِكي يُفسّر هذا الفيلسوف النظام السائد في الكون بعيداً عن الميثولوجيا والأساطير، قال بوجود " قانون كلّي " يحكم الظواهر ويتحكّم في صيرورتها الأبديّة.[1]ومن هنا كان الدين الحق في نظر **هيراقليطس** هو مطابقة العقل الفرد – عقل

[1]محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي ،ط4، 1989م ، ص 15

الإنسان الفرد – للقانون الكلّي الساري في الكون، أي للعقل الكوني أو الكلّي.

أمّا **أناكساجوراس** فيرى أنّ الأجسام مركّبة من أجزاء متشابهة تقبل القسمة إلى غير نهاية من حيث المبدأ، ولقد كان الكون في أوّل أمره عبارة عن خليط فوضوي من البذور عبارة عن "كاوس" أي عبارة عن عماء مطلق يشكّل " الكل الموجود" والعقل هو الذي نظّم كلّ شيء وإنّه العلّة لجميع الأشياء. فجاء تصوّر أناكساجوراس الذي استمدّ منه سقراط وكلّ من إفلاطون وأرسطو وما حمله التصوّر اليوناني للعلاقة بين الطبيعة وهذا العقل الكلّي (الذي يتنزّل منزلة الإله في الديانات التوحيديّة) وبينه وبين الإنسان " وهكذا نجد في جميع الأحوال داخل الثقافة اليونانيّة: الطبيعة أوّلاً بوصفها معطىً ابتدائيّا غير منظّم ولا متميّز، ثمّ تتدخّل قوّة أخرى تسمّى (العقل) تعمل على إشاعة النظام في الطبيعة، وبالتالي دفع عجلة التكوّن والتطوّر، أمّا الإنسان فهو في جوهره قبس من "العقل الكلّي" العقل– النظام، وهو يكتشف نفسه ككائن عاقل في الطبيعة ومن خلالها، والفعل العقلي الجدير بهذا الاسم هو إدراك النظام والترتيب بين الأشياء "[1] أي أنّ العقل في التصوّر اليوناني الأرسطي هو "إدراك الأسباب".

[1] المرجع السابق ص20.

وفي هذا الاتجاه سارت الفلسفة الحديثة في أوروبا ، يقول مالبرانش : "إنّ العقل الذي نهتدي به عقل كلّي...عقل دائم وضروري ... وإذا كان صحيحا أنّ هذا العقل ضروري ودائم وثابت لا يتغيّر فهو لا يختلف عن الله " وكانط عاد إلى مايشبه الموقف الديكارتي فجعل العقل البشري المنظّم للتجربة والمشرّع للطبيعة ولكلّ ما فيه من مبادئ فطريّة كما قال ديكارت بل بوصفه هو نفسه جملة من القوالب العقليّة التي هي عبارة عن قوالب فارغة تملؤها الحدوس الحسّية فتتحوّل إلى معرفة. كما أنّ هيجل انطلق من مبدأ أساسي هو " كلّ ما هو واقعي فهو عقلي وكلّ ما هو عقلي فهو واقعي" وهذا معناه أن ليس هناك في الوجود شيء لا يقبل التفسير بالعقل، وأنّ كلّ ما يقبل التبرير العقلي فهو موجود ضرورة.

لقد حدّد الجابري أنّ العقل نعني به الفكر بوصفه أداة وليس بوصفه محتوىً،وتساءل هل معنى ذلك أنّ العقل خالٍ من كلّ محتوى، بل هل الفكر بهذا المعنى أي بوصفه أداة لا غير خال هو نفسه من كلّ محتوىً ؟ ويجيب : أوليست الأداة – أيّ أداة – عبارة عن شيء مركّب؟ أو ليست كلّ أداة أو جهاز بين الفاعليّة وما منه قوام هذه الفاعليّة ؟ إنّ الأداة التي نحفر بها الأرض – الفأس مثلا – تستمدّ هويّتها ولنقل ماهيّتها من فاعليّتها: الحفر. ولكنّها تستمدّ قدرتها على الحفر من أجزائها وطريقة تركيبها وأيضا

من أسلوب استعمالها، أفلا ينطبق هذا على "أداة التفكير" سواء سمّيناها " الفكر" أو "العقل".[1]

لالاند ميّز بين العقل المكوِّن أو الفاعل والعقل المكوَّن أو السائد – كما عرض له الجابري– الأوّل يقصد به النشاط الذهني الذي يقوم به الفكر حيث البحث والدراسة والذي يصوغ المفاهيم ويقرّر المبادئ. وبعبارة أخرى أنّه " الملكة التي يستطيع بها كلّ إنسان أن يستخرج من إدراك العلاقات بين الأشياء مبادئ كليّة وضروريّة، وهي واحدة عند جميع الناس" أمّا الثاني فهو " مجموع المبادئ والقواعد التي نعتمدها في استدلالاتنا، وهي على الرغم من كونها تميل إلى الوحدة، فإنّها تختلف من عصر لآخر كما قد تختلف من فرد لآخر. يقول لالاند " إنّ العقل المكوَّن والمتغيّر ولو في حدود، هو العقل كما يوجد في حقبة زمنيّة معيّنة، فإذا تحدّثنا عنه بالمفرد (=العقل) فإنّه يجب أن نفهم منه العقل كما هو في حضارتنا وفي زمننا " وبعبارة أخرى إنّه " منظومة القواعد المقرّرة والمقبولة في فترة تاريخيّة مّا، والتي تُعطى لها خلال تلك الفترة قيمة مطلقة ".

وحول العقل العربي ذهب حسن صعب في دراسته حول تحديث العقل العربي إلى أنّ مستلزمات التحديث الأساسيّة هي الحريّة الإنسانيّة، والتجريبيّة العلميّة، والتنظيميّة العقلانيّة، والإبداعيّة الفكريّة، إنّها مستلزمات

[1] المرجع السابق ص15.

كما يقول غير كافية ولكنّها ضروريّة لكلّ تقدّم حقيقي، فلابدّ للعقل العربي أن يستسيغها وهو ينشد اللحاق بالتحضّر الحديث وتجاوزه لتحضّر عربي وإنسانيّ أفضل منه [1]. وقد حمّل حسن صعب البنية السياسيّة الدور الأكبر في التحديث البنيوي.

أمّا الجابري فقد عرّف العقل العربي بأنّه " الفكر بوصفه أداة للإنتاج النظري صنعتها ثقافة معيّنة لها خصوصيّتها هي الثقافة العربيّة بالذّات، الثقافة التي تحمل معها تاريخ العرب الحضاري العام، وتعكس واقعهم أو تعبّر عنه وعن طموحاتهم المستقبليّة كما تحمل وتعكس وتعبّر في ذات الوقت عن عوائق تقدّمهم وأسباب تخلّفهم الرّاهن "[2].

وقد أعدّ محمد تقي فاضل بحثاً في مركز البحوث المعاصرة في بيروت، ترجمه مشتاق الحلو، حول مفهوم العقل بين الفلسفة والدّين، قراءة نقديّة معاصرة، جاء في مدخله التساؤل التالي : إلى أيّ حدّ تتّسع دائرة العقل في المعارف الدينيّة؟ وهل يتمكّن العقل البشري من تحليل القضايا الدينيّة؟ وهل بإمكان علم المنطق الذي يُعدّ سلاح العقل الدفاع العقلاني عن جميع القضايا الدينيّة الإنشائيّة منها والإخباريّة وجعلها ذات معنى حسب تعبير

[1] حسن صعب، تحديث العقل العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط3 ، 1980، ص5
[2] الجابري، تكوين العقل العربي ص14.

فلسفة التحليل اللغوي؟ كي لا يحدث تضاد بينها وبين العقل ويتعايش المتديّنون والفلاسفة بسلام ويزاوجون بين العقل والدين .

يذهب محمد تقي فاضل في بحثه إلى أنّ الصراع بين العقل والدين كان قائما مدى تاريخ الأديان التوحيديّة، فقبل الثورة الصناعيّة في أوروبا تناولت الفلسفة القضايا الدينيّة ودافعت عن الدّين بصورة مطلقة، لكن بعد النهضة العلميّة وظهور المدارس الفلسفيّة الحديثة وفلسفات العلوم، برز الصراع بين العلم والدّين، وازداد الاتّكال على العقل التجريبي، وضاقت الأرض بالدين والفلسفة بمعناها المتداول في القرون الوسطى، وأصبح صوت العقل فوق صوت الوحي. وسعى المتديّنون والمتكلّمون لحفظ سلطة الكنيسة والإيمان بشتّى الطرق، لكن لم تكن جهودهم مجدية، فسيف العلم كان يقتلع كلّ مانع يعترضه، وفي فترة وجيزة انهار النظام الفكري الأرسطي، وتزعزعت عقائد الكنيسة المتحجّرة، وأعلن دعاة العلم موت الدّين، وقالوا: إنّ العلم سوف يحلّ محلّه .

وقد تساءل فاضل : هل العقل الديني مرادف للعقل الفلسفي ؟ وهل يمكننا الدفاع العقلاني عن القضايا الدينيّة وإثبات حقيقة الدين بطريقة فلسفيّة استدلاليّة ؟ وأجاب عن تساؤله بنعم، إنّ أحد طرق معرفة مفاهيم الألفاظ القرآنيّة هو التبادر والفهم العرفي، وقد نزلت الآيات على أساس الأدب اللغوي والفهم السائد حينذاك، وأتت بلسان القوم الذين نزلت عليهم، وقد

تكرّر لفظ العقل واشتقاقاته أكثر من خمسين مرّة في القرآن، كما أمر الله الناس بالتعقّل ومطالعة آياته بواسطة العقل.

قاده هذا المعطى إلى تساؤل جديد: هل هذا العقل متطابق أم مغاير للعقل الفلسفي ؟ فاستعرض تعريفات الحكماء للعقل ومراتبه التي ذكرت الكتب الفلسفيّة أربعاً، منها: **العقل الهيولاني** : وهو الجوهر الذي بلغ درجة الكمال في الشؤون والكمالات الحيوانيّة والقوى الحيوانيّة فعليّة فيه. **والعقل بالملكة:** وهو النفس في هذه المرتبة جوهر أعلى وأقوى من جوهر العقل الهيولاني. ثمّ **العقل الفعلي:** وهو تكوّن النفس في هذه المرحلة لتكون قادرة على الفكّر والاستنتاج وتتمكن من استخراج المجهولات العلميّة من المقولات البديهيّة الواضحة بضمّها إلى بعضها وتأليف البرهان والاستدلال المنطقي الدقيق، ويمكن إطلاق صفة العالم الحقيقي على صاحب هذه المرتبة . ثمّ **العقل المستفاد** : تتنزّه النفس في هذه المرحلة عن الغبار الذي يغطّي عالم الفكر ويسبّب الغفلة أحياناً، وتبلغ في التركيز على جوهرها العقلي والاستغراق في إدراك المعقولات المحضة درجة من القوّة تشاهد فيها معقولاتها أمامها، ولا يمكن لقوّة مّا جذبها إلى عالم الحس والتغلّب على مدركاتها العقليّة.

ثمّ عرض محمد تقي فاضل إلى مفهوم العقل في الكتاب والسنّة، وتساءل: هل في القرآن وجود للاستدلال الفلسفي؟ وتوصّل إلى أنّ لفظ العقل ومشتقاته ومرادفاته ذكر أكثر من خمسين مرّة في القرآن، وأنّ أكثر من

ثلاثمائة آية دعت الإنسان للتفكّر والتدبّر والتعقّل، لكن لم تتطرّق أيّ من هذه الآيات لبيان حقيقة هذا الدرّ الإلهي. يفهم من سياق الآيات أنّ الله أودع الإنسان قوّة في باطنه بإمكانها تمييز الحسن من القبيح، والخطأ من الصواب إذا ما فعلت، وكلّ إنسان واقف على هذه الحقيقة بالضرورة وبالعلم الحضوري، وأنّ الله أراد أن تتصل هذه الحقيقة وترتبط بسائر آياته حتّى يتعرّف الإنسان على الحقيقة الأساسيّة، وهي خالق الكون فيعبده، وتحيا القيم الثابتة على أساس ذلك لتكون دليل الإنسان :" العقل ما عُبد به الرحمن، واكتسب الجنان ".

وخرج بعد كلّ عرضه إلى أنّ العقل ليس آلة للاستدلال الفلسفي، ولا في صدد الكشف العلمي أو الفلسفي، وأنّه ليس في القرآن استدلال فلسفي أو منطقي على وجود الله، ويبدو أنّ لفظ العقل كان يستخدم في الجاهليّة بمعنى الشعور العملي وشدّة الارتباط والاتصال، ولفظ "العقال" الذي يعني الاتصال والربط المحكم وهو جذر كلمة "العقل" ولا تبتعد كلمات القرآن التي أتت على أساس الفهم العرفي وبيان الثقافة والأدب العربي في العصر الجاهلي عن المعنى المذكور.

كما يعتبر الدكتور حسين نصر كلمة" العقل" معادلة لجذر كلمة (Religion) بمعنى النحلة أي (Religare) التي تعني في اللاتينيّة " الوصل" أي الاتصال بالحقيقة وما يربط الإنسان بها.[1]

ويخلص محمد تقي إلى الفوارق بين العقل الفلسفي والعقل الديني بأنّه لا يعني التعقّل في القرآن أن يقوم الإنسان المؤمن بضمّ عدّة مقدّمات والخروج منها بنتيجة، وإثبات أمر مّا بالاستدلال المنطقي، بل يعني التدبّر في الأمور، والتدبّر مشتقّ من مادّة "دبر" أي تتبّع أمرٍ للوصول إلى نهايته. ومنهج العقل هنا أن يتبع الإنسان قواه المعرفيّة وهي فطريّة للتعرّف على صانع العالم، ثمّ يؤمن به، وعلى هذا الأساس يكون القلب وهو مصدر الحب مرادفاً للعقل، ويختلف هذا كلّ الاختلاف عن العقل الذي يصل إلى النتائج بتسطير المقدّمات والاستدلال بها، لهذا يبدوا أنّه من غير الممكن الادّعاء بأنّ الدين كالفلسفة يريد الدفاع عن قضاياه دفاعا عقليّاً فلسفيّاً. لأنّ الدفاع العقلاني الفلسفي ينظر إلى العالم بوصفه مجموعة واحدة في بادئ الأمر ثمّ يقوم بنظرة فلسفيّة للدفاع عن تعاليمه. أمّا العقل القرآني فينظر لظواهر العالم بصورة جزئيّة ويعتبرها آيات.

وخروجا من كلّ هذه التشعّبات والحيرة وحتّى من ماذهب إليه سيجموند فرويد من تقسيماته للعقل بين الوعي واللاوعي أو شعور واللاشعور فإنّ

[1] مجلّة كتاب الثقافة 12: 78

الأستاذ الشيخ محمد الشيخ بطرحه نظريّة التحليل الفاعلي قد حسم كثيراً من الجدل من حيث إدراك المرء لنفسه من خلال إحدى بنى الوعي لديه أو من حيث رؤيته للكون وقراءته للتاريخ، فنظر إلى العقل كونه مستقبلا ومرسلا، نظريّا وعمليّا إنطلاقا من كونه يشكّل مركز الفاعليّة لدى الفرد، ووضع نظريّته من منطلق وظائف وضوابط وخصائص وسمات كلّ بنية وعي، ومن ثمّ نظرتها لذات الفرد الحامل لها، وتفسيرها لماهيّة الحياة والإنسان وقراءتها للنصوص وتوظيفها لها. ونظريّة التحليل الفاعلي سنفصّل الحديث عنها في المبحث التالي، فقد انبثق عنها منهجاً نقدياً يعتمد القراءة في التحليل، والمنهج القرائي طرحه العديد من النقاد دون تأسيس على تركيب العقل، فقد عرض (ميشيل بيكار) منهجه حول عملية القراءة في كتابين، نشر أوّلها عام 1986م بعنوان " القراءة كلعبة " وظهر ثانيهما بعد ثلاث سنوات بعنوان " قراءة الوقت "، فقد اقترح القارئ الحقيقي الملموس الذي يدرك النص بذكائه وبرغباته وبثقافته وبقيوده الاجتماعية والتاريخيّة وكذلك بشخصيته اللاواعية، وهذا ما يدعم رؤية التحليل الفاعلي من أنّ القارئ يدرك النص من خلال البنية التي يحتازها.

ومما يؤكّد ويدعم التحليل الفاعلي للنص من خلال القراءة ما ذهب إليه (د. حسن سحلول) من أنّ " كلّ قراءة تؤثر وتتأثر معاً بالثقافة وبالبنية السائدة في عصرمّا وفي بيئة مّا. وسيّان أنكرت القراءة النماذج الفكريّة المهيمنة

في الخيال الجماعي أوعزّزت من مواقعها فإنها تؤثر بها، فتؤكّد بذلك بعدها الرمزي ويكتسب المعنى الذي ترتديه قراءة مّا في وسط مّا بالنسبة لبقية أشياء العالم التي يألفها القارئ في ذلك الوسط. ويثبت هذا المعنى في خيال ذلك القارئ. وبما أنّ هذا القارئ ينتمي بالضرورة إلى مجموعة بشريّة وإلى خيال جماعي تتميّز به هذه الجماعة عن غيرها من الأقوام فإنّ المعنى الذي ثبت في خياله يرفد كذلك الخيال الجماعي، وهكذا فإنّ القراءة الفردية تظهر كجزء لا يتجزأ من ثقافة جماعيّة"[1]وهذا ما عناه (الشيخ محمد الشيخ) من القراءة المسترجعة التي تقوم بالتغذية المسترجعة.[2]

وممّا يدعم رؤيته كذلك تحويل القارئ من مستهلك إلى منتج، وهو ما ذهب إليه (رولان بارت) من أنّه " ينبغي للذات القارئة أن تتمكن من إعادة توزيع النص وفق جسدها وحسب رغبتها، وهذا مقياس جمالي أساسي يتجاوز بشكل واسع حدود الأدب.[3] كما أنّ ناقدا مثل (ماكس ايستمان) يعتبر الشعر جهداً خالصا لتصعيد الوعي.[4] أي الانتقال إلى فضاء البنية أو الخروج إلى بنية أخرى حسب ما يرى الشيخ.

[1]حسن مصطفى سحلول، نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001م
[2]الشيخ، الشيخ محمد، التحليل الفاعلي نحو نظرية حول الإنسان، مركز الدراسات السودانية، القاهرة، ط1، 2000م.
[3]السيد، عبدالرؤوف بابكر، النص الأدبي الاستلاب والفاعلية ، منشورات جامعة سرت 2008مص124، نقلا عن رولان بارت، فانسان جوف،ص58.
[4]ويليام.ك.ويمزات، النقد الأدبي، جامعة دمشق1976، ج4،ص86.

وأعتقد أنّ رؤية التحليل الفاعلي قد أجلت الأمر بصورة واضحة، وليس أمامنا سوى التدقيق في تركيب العقل وبنى الوعي التي يشملها هذا العقل ويفسر الذات والآخر وما بينهما من خلال احتيازه إحداها.

المبحث الثاني

مفهوم البنية وبُنى العقل

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ الكهف 46

نظريّة التحليل الفاعلي هي من أهمّ وأحدث النظريّات التي توصّل إليها الفكر الإنساني المعاصر، من خلال العالم والمفكر السوداني الشيخ محمد الشيخ، والتي برز منها منهج التحليل الفاعلي في قراءة النصوص والشخوص وعجلة التاريخ وتعدّد الحضارات. فالإنسان هو فاعليّة، هذه الفاعليّة تتجلّى في إثرائه هذه الحياة حسب ما يحتازه من بنية وعي وحسب ما يعي نفسه من خلالها.. إثراء الحياة بالتناسل والتكاثر إن كانت بنية وعيه هي البنية الأوّليّة القاعديّة (التناسليّة) أو إثراؤها بجمع الخيرات المادّيّة إن كانت بنية وعيه هي البنية الماديّة (البرجوازيّة) أو إثراؤها بعمل الخيرات والصالحات إن كانت بنية وعيه مفتوحة وهي بنية الوعي (الخلاّق).

فالنظريّة تقول بأنّ العقل الإنساني عقل مركّب ويحتوي على ثلاث بنىً للوعي، هذه البنى لدى كلّ إنسان وفي كلّ عقل إلاّ أنّ واحدة منها تظلّ المسيطرة عليه، ويرى الإنسان نفسه من خلالها، والبنيتان الأخريان يصبحان في الخلف داعمتان ومساعدتان لها.

وعلى هذا فإنّ هناك من يحتاز بنية الوعي الأوّلي القاعدي(التناسلي) فيرى ذاته كائنا تناسليّا مهمّته في هذه الحياة هي التكاثر والإنجاب وزيادة النسل وحفظ النوع، ولا يرى نفسه في غير ذلك، ولا يعني هذا أن ليس لديه بقيّة البُنى ولكنهما يقومان بوظيفة المساندة والدعم للبنية المسيطرة عليه. وكذا من يحتاز بنية الوعي المادّي (البرجوازي) حيث يرى ذاته كائنا مادّيّا مهمّته في هذه الحياة هي الثراء وجمع الخيرات الماديّة بكلّ الطرق وجميع الوسائل، تساعد هذه البنية لديه البنيتان الأخريان، وهناك من يحتاز بنية الوعي (الخلاّق) فيرى نفسه كائناً مبدعاً خلّاقاً مهمته في هذه الحياة الحب والإبداع والعطاء الشامل لإثرائها.

كلّ بنية من هذه البُنى الثلاث تسيطر على الفرد، وحين يكون مجموع الأفراد في المجتمع أو غالبيّتهم يحتازون ذات البنية فذلك يعني وصف هذا المجتمع بأنّه مجتمع قاعدي تناسلي (إن كان معظم أفراده يحتازون بنية الوعي التناسلي) أو مجتمع مادّي برجوازي (إن كان غالبيّة أفراده يحتازون بنية الوعي البرجوازي) أو مجتمع مبدع خلاّق (إن كان غالبيّة أفراده يحتازون بنية الوعي الخلاّق).

وفي قراءة للمجتمعات عبر التاريخ نجد أنّ بنية الوعي التناسلي كانت هي السائدة عبر الحضارات السابقة، وأخيراً سادت في المجتمع الغربي بنية الوعي البرجوازي، ولم يحدث أن سادت بنية الوعي الخلاّق في مجتمع من

المجتمعات، إلاّ أنّه وعلى مستوى الأفراد هناك الكثيرون جدّا ممّن احتازوا لهذه البنية وتمثّلوا لنا في المفكرين والمبدعين والمصلحين والحكماء والأنبياء والرسل وكلّ من حمل على عاتقه إنقاذ الحضارات من الانهيار والصعود بها مرّة أخرى.

كما أنّنا في قراءة للنصّ القرآني الكريم باعتباره نصّا مركّبا خاطب جميع البنيات (المال والبنون) بنيتي الوعي التناسلي والبرجوازي زينة الحياة الدنيا، ولكنّه ميّز بنية الوعي الخلاّق (والباقيات الصالحات خير عند ربّك ثواباً وخير أملا) ولسيادة بنية الوعي التناسلي فقد بُشّر بعض الرسل بالإنجاب رغم كبر السنّ والعقر الذي لدى زوجاتهم ليكون ذلك من أوضح المعجزات. فمريم عليها السلام بُشّرت بغلام ولم يمسسها بشر، وإبراهيم عليه السلام بشّر بإسحاق ويعقوب رغم كبر السنّ وامرأته (سارة) العجوز العقيم، وداوود وهب له سليمان، وزكريّا الذي دعا ربّه أن لا يذره وحيداً وكانت امرأته عاقراً فبشّره سبحانه وتعالى بيحيى، فالإنجاب والتناسل هاجس البنية وتعلم كيف تكون المعجزة مع العقم أو مع الكبر أو حين لا يمسسها بشر.

بقي علينا أن نتعرّف على طبيعة وخصائص وسمات كلّ بنية للوعي وأسلوب سيطرتها وكيفيّة نشر أدبيّاتها ومعاقبة المنفلتين أو المتمرّدين عليها الذين يحاولون احتياز بنية أخرى غير السائدة في المجتمع .

فالبنية الأوّليّة (التناسليّة)هي من أولى البُنى في وعي الإنسان والتي كان مناطاً بها توفير البشر كمّيا، والسيطرة على التوازن بين من تختطفه الأمراض والأوبئة والكوارث الطبيعيّة والحروب وشتّى أنواع الصراع، وبين حفظ النوع، ومن أهمّ خصائصها أنّها تنشر الوعي الذاتي للفرد بأنّه كائن تناسليّ وأنّه وُجِد في هذه الحياة عن طريق التناسل وليس أمامه سوى أن يمارس ذات الدور ليُسهم في هذا التكاثر لحفظ النوع وعدم فناء البشريّة و (اللّى خلّف ما مات) من أدبيّاتها.

لذا فإنّنا نجدها تنشط دائما حين تكون هناك مهدّدات بالفناء، وحين يتعرّض المجتمع إلى كوارث وحروب تفني جزءاً كبيراً منه، حيث نجدها تسارع في زيادة وتيرة الإنجاب. تقوم بهذا الدور بوعي أو بدونه من أجل حفظ البشر كميّا، لذا فهي تنشر أدبيّاتها الخاصّة بها بين أفراد المجتمع بكلّ الوسائل ومنها القوليّة كالشعر والأمثال الشعبيّة التي ترسّخ قيمها ومقولاتها ضمن الموروث الثقافي لها. ففي مثل هذه المجتمعات من ينجب أكثر عدد من الذكور تكون له الحظوة في المجتمع ويُعدّ أحد ركائزه. فعصب هذه المجتمعات هو تعداد الذكور فيه الذين يقومون بعمليّة الإنتاج والحماية له. وفي هذه المجتمعات المرأة أقلّ قيمة عن الرّجل لأنّها بالنسبة له ليست سوى آلة تفريخ لإنجاب الأبناء ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا

يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾ النحل 58-59، بل يذهبون إلى أبعد من ذلك كما في عصر ما قبل الإسلام بوأدها حيّة خشية الإملاق أو ما يمكن أن تجلبه من عار حين تُسبى.. وفرض قيود عليها – كما في العصر الحاضر – بالبقاء في منزل أبيها ومنه إلى زوجها ومنه إلى القبر، وحين فرضت المُعاصرة ضرورة تعليمها وعملها فبالحجاب والنقاب خشية الفتنة وجلب العار وجميعه وأدٌ وإن بطرق أخرى.

وتشكّل المرأة قيمة الشرف الوحيدة في هذه المجتمعات حيث يمكن أن ينشب القتال وتستعر الحروب من أجل شرف الأسرة المتمثل في المرأة. من هنا كان الحرص الأكبر لهذه المجتمعات من التقليل من شأن المرأة ومن تحجيم دورها ووصفها بكثير من النعوت التي تتساوى بها مع الشيطان، لأنّها مصدر الفتنة التي عليهم درؤها فلا يظهر للرجل منها سوى الوجه والكفّين، ولهذا حرصت هذه البنية في قراءتها للنص الديني أن تثبّت رؤيتها فالبنية سابقة للخطاب ومن ثمّ تقوم بتأويله لصالحها فإذا بكمٍّ هائل من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تقلّل من شأنها وتجعل أكثر أهل النار من النساء، وتجعلها في طاعة زوجها، ولو كان لمخلوق أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، وهي ناقصة عقل ودين، وخاب قوم ولّوا أمرهم امرأة، والقائمة تطول في تجيير النصوص الدينيّة ووضعها لصالح البنية التناسليّة وما استقرّ فيها من ثوابت.

كما كانوا يتزوّجون بعدد غير محدود من الزوجات وشـــقّ عليهم الالتزام بزوجة واحدة فنجدهم قد وظّفوا الآية الثالثة من سورة النساء لصالح التعدّد في الزواج مع تحديد العدد بأربع زوجات في حين أنّ الآية لاتنحى أو تؤوّل بهذا المفهوم، فالمناخ العام للآيات يتحدّث عن اليتامى وكفالتهم وإن شـئت أن تكفلهم وتضـمّهم إليك فتزوّج الأرملة التي لها أيتام تحتاج لمن يرعاهم مثنى وثلاث ورباع ، ولكنّ البنية التناسـليّة درجت على التعدّد في عصر ما قبل الإسلام وشقّ عليها مفهوم التعدّد المحدّد بقيمة كفالة الأيتام ورعايتهم فوظّفوا النصّ على أنّه يحلّ لهم الزواج مثنى وثلاث ورباع على المطلق، وانطلاقاً من نظرة البنية للمرأة عموما. وسنعرض لذلك في حينه.

ما من بنية وعي سائدة في مجتمع بشري ـ بحكم قدرتها على تنفيذ مهامّها وتسلّحها بضوابطها وتمكّنها من آلياتها ـــ تنازلت لبنية أخرى عن طيب خاطر مستسلمة للآخر.. الأمر الذي يفسر لنا الصراعات الدامية التي شهدتها البشرية عبر تاريخها والتي لا زالت تعاني من ويلاتها، دون وعي منها باسـتجابتها لسـمات القصـور المتجذّر في البنية، والموجه للحركة المجتمعيّة والسياسية والاقتصاديّة والثقافيّة.

فإذا كانت بنية الوعي(السـائدة في مجتمع مّا) تحكم وتتحكّم في أفرادها مخضـعة لهم لتنفيذ مهامّها وأغراضـها، وتمارس عليهم بقسـوة السـيطرة والعقاب والتجريم لكلّ من يسعى للانفلات من قبضتها سواء برفضها دون

مشـــروع أوباحتيازه بنية وعي بديلة، بل وحتى ذلك الذي يحاول أن يحلّق متمرّداً رافضـاً بوعي في فضـاء البنية.فإنّ ذلك يشكّل صـعوبة في التمرّد والانفلات بين أفرادها.

وبمقدار قوّة بنية الوعي الســـائدة، وتمكنها من فرض ســـيطرتها على مســاحتها المجتمعيّة، بقدر ما تصــبح عصــيّة على بنية أخرى تســعى للهيمنة عليها أو إقصـائها حتى لو امتلك الآخر وسـائل القوّة وآليّات القمع الذي يفضـــي بـه إلى الاحتلال، وفرض النفوذ، والنهب للثروات. تظلّ المقاومة بكل الوســائل تخلق أرضــيّة ســاخنة ومكلّفة للبنية المجتمعيّة المعتدية.

ولقد ظلّت بنيتا وعي القصـور(التناسـليّة والماديّة البرجوازيّة) تمارسـان هذه الاعتداءات، وتلك الاسـتباحة للآخر متى ما أتيحت لأيّ منهما مصـادر القوّة القتاليّة والاقتصـاديّة في ضـوء حجج هي في عمق تركيبة كلّ منها. فالصـراع الديني تقوده البنية التناسـليّة باعتباره واجباً عليها لنشره والتبشير بـه من أجل هداية العالم كما تدّعي(فهي تمتلك الحقيقة وحدها) .. وقد شهد التاريخ حروبا دينيّة لا حصر لها حتى داخل المعتقد الواحد. والصراع من أجل الثروة، والاسـتحواذ على الخيرات المادّية، تقوده البنية البرجوازيّة مستبيحة الآخر، سلباً ونهباً لخيراته، وسيطرة علي مقدّراته.

ومنذ سيادة البنية البرجوازيّة بعد تفجّر الثورة الصناعيّة في أوربا في القرن الخامس والسادس عشر، وما ترتّب على ذلك من تغيّرات ضخمة تمثّلت في أساليب الإنتاج وبناء المدن ودوران عجلات المصانع" أصبح من الضروري البحث عن أسواق خارج الحدود الإقليميّة، وظهر التنافس بين الدول الصناعيّة الكبرى من أجل الحصول على هذه الأسواق، والحصول على المواد الخام اللاّزمة للصناعة"[1] وصحب ذلك الإنتاج الكبير تراكم وفير لرأس المال الذي بدأ يبحث عن مجال للاستثمار، حتى لا يظلّ عاطلاً، فانطلق الغرب باحثا عن موارد الثروة المخبوءة في مناطق العالم المختلفة، ومارس بحكم بنيته الجديدة(البرجوازيّة) تلك الاعتداءات والاستباحة للآخر التي خجل التاريخ منها وهو يدوّنها على صفحاته.. لقد دخلت البلدان المتخلّفة في مواجهة حضارية بمحتويات بنية الوعي التناسلي وإمكاناتها الروحية الكبيرة ضد البلدان المستعمرة بإمكاناتها الماديّة الهائلة وطموحها في إقصاء الآخر، فانهزمت عسكريّاً وتكنولوجيّاً وحضاريّاً، ولكنها حافظت علي مهامّها وأغراضها من حيث توفير البشر كمّياً، ونزعتها في إقصاء الآخر كامنة فيها لتشرب الماء صفواً، وليشرب غيرها الكدر والطين.

[1] زاهر رياض،استعمار أفريقيا، القاهرة،1964،ص8

لقد مارست بنية الوعي السائدة في الغرب أسوأ أنواع الإقصاء والاستباحة للآخر، خاصّة إنسان القارّة الأفريقية، حيث تركت وصمة عار في تاريخ البشريّة لن يمحى ما بقي الإنسان على وجه الأرض.

ولتبرير البنية (المادّية) عدوانها على الآخر فقد مارست : الاستعلاء الديني بالحملات الصليبية حيناً، والاستعلاء اللغوي بمحاولات طمس اللغات الأخرى، وفرض لغتها. والاستعلاء الحضاري والثقافي بفرض ثقافتها، والاستعلاء العرقي بممارسة العنصريّة في أبشع صورها.

العنصريّة العرقيّة كسلوك يكمن في كلتا بنيتي الوعى (التناسلي والبرجوازي) حيث تعتقل هاتان البنيتان أفرادهما وجماعاتهما في ما يسمّى بنقاوة العرق، أو التفوّق العرقي، بحكم الأبستيمة أوالنواة المولّدة للوعي لدى كلّ بنية قاصرة تدّعي بأنّها الأرقى والأنقى والأفضل والأسمى..الخ،

لقد كان لون البشرة في كلّ الحضارات السابقة يعدّ منقصة، جعل السود في قاع الهرم .. وبالرغم من أن الإسلام جعل البشر يتنفسون بالعدالة السماويّة بإزالة الغبن عنهم حين ساوت بين الأسود والأبيض،الأعجمي والعربي، وجعلت الأفضليّة للتقوى والمعاملة والسلوك الاجتماعي، وعدّ التمييز بين البشر على أساس اللون جاهليّة ينبغي التخلّص منها. إلاّ أن البنية وبحكم أسبقيتها للخطاب، فإنها لم تتخلّ عن استرقاقها واستعلائها.

حيث مارست مع الأسود وحشيّة غاية في التدنّي.. لقد " كان اقتناء العبيد الأفارقة يُعتبر من مظاهر الترف والجاه إذ كان الوضع الاجتماعي للمالك يقاس بعدد عبيده الذين كانوا يعدّون جزءاً مهمّا من حاشـــيته، ومظهراً لثروته وقوّته."[2]

يشكل التعصّب وحبّ الذّات والأنانيّة وممارسة الاستعلاء واستباحة الآخر جذرور بُنى الوعي القاصـــرة المتمثّلة في بنيتي الوعي (التناســـليّة والبرجوازيّة). وبحكم سيادة بنية الوعي التناسلي على مجمل الحضارات السابقة قبل سيادة(البرجوازيّة) في الحضارة الغربية الحاليّة.. إلاّ أنّ ذلك لايعني عدم وجود ممثلين لها أو للبنية الخلاّقة التي تمّت الاســـتعانة بها عبر مفاصل التاريخ لإحداث النهضات الحضاريّة. هذه البنية المفتوحة يتمثل أفرادها في كلّ الأنبياء والرســـل والمفكرين والمصـــلحين والمبدعين بمختلف أنواع الإبداع.. كما يتمثل أفراد بنية الوعي البرجوازي في الحضارات السابقة في كلّ من احتاز القوّة المادّية أو السياسية من ثروة وسلاح وجاه يمكنها من إشباع نزعاتها الاستعلائية واستباحتها للآخر فقد مارس التجّار عبر كلّ الحضارات الاستغلال، فالنواة المولّدة للوعي لديهم تجعلهم يفهمون الإنســـان كائناً مادّياً مهمته في هذه الحياة الجمع

[2] ف.و. نايت، الشتات الأفريقي، تاريخ أفريقيا العام، المجلد السادس، القرن التاسع عشر في أفريقيا حتى ثمانينيّاته، اليونسكو، ط2، 1997، ص 846 .

والاستحواذ على الخيرات المادّية بأيّ وسيلة كانت، وهكذا كان ممثلوا هذه البنية عبر التاريخ يمارسون استغلال الغير.

هذا ما يبرّر وجود ظاهرة الاسترقاق من خلال ارتباطها بالعامل المادّي الذي يشكل فاعليتها، حيث لم يكن كلّ المجتمع يمارس هذا الدور أو يرضى عنه، ولكنها بذور بنية برجوازيّة لم يتسنّ لها التشكل بعد، أو فرض سيادتها الكاملة لترتكز عليها حضارة مادّية كالسائدة الآن في الغرب. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه البعد التاريخى لهذه البنية، وما أن سادت في المجتمعات الغربية خلال الخمسة قرون الماضية حتى مارست أبشع أنواع الاستغلال والظلم والاستعلاء والاسترقاق والاستعمار. واستباحة الآخر بمجمله من أجل الاستحواذ على الخيرات المادّية دون غيرها.

وتركيب بنية العقل ـ وفق التحليل الفاعلي ـ كما ذكرنا يتمثل في أنّ كلّ بنية من بنى العقل(التناسليّة القاعديّة والمادّية والخلاّقة) تتكون من **وجدان**(جملة العواطف والمشاعر، والقدرة على الحب) **وجنان** (القدرة على الفهم والاستدلال والتحليل) **وذات**(وعي البنية لذاتها) غير أنّ هذه (البنيات) تختلف في وظائفها بناء على طبيعة المرجعيّة النهائيّة لكلّ بنية، فالبنية المغلقة (وجدان مغلق) إذا كان برنامجها للعطاء محدود يقصر عملية الحب والعطاء في دائرة ضيّقة تشمل الشخص وأسرته وربما عشيرته أو طائفته. وتكون بنية العقل مفتوحة إذا كان برنامجها للعطاء

مفتوحا يحقّق الإثراء الشامل للحياة. في هذا الإطار تعتبر كلّ من البنيتين التناسـليّة والمادّية مغلقتين، والبنية الوحيدة المفتوحة هي بنية العقل الخلاّق. ويخوّل انغلاق بنية العقل إقصاء واستغلال واضطهاد كلّ من هو خارج الحدود الجغرافيّة لبرامج عطاء البنية، ويتمّ ذلك عادة بحجة التفوّق الدينى أو العرقي، أو الحضاري.

يذهب الشيخ محمد الشيخ في نظريته إلى أن منظومة القيم تتحدّد وفقا للمرجعيّة النهائيّة للبنية، وحسب انغلاق أو انفتاح الوجدان. لذا فإن منظومة القيم في البنية التناسليّة، منظومة تناسليّة تعمل على تكريس دور المرأة والرجل في التناسل، وتجعل من تكوين الأسرة غاية الحياة وليس وسيلتها. ورغم الأهمّية البالغة لهذه البنية ومنظومتها القيميّة التي حافظت على بقاء الحياة البشريّة وصيرورتها البيولوجيّة، إلاّ أنه يُعاب عليها تدنّي الفاعليّة وذلك لكونها مغلقة. وكذا بالنسبة لمنظومة القيم المادّية التي تكرّس دور الإنسان في إنتاج واستحواذ الخيرات المادّية، فهي أيضا محدودة العطاء. والبنية الوحيدة التي يمكن أن تجسّد قيم العدل والتسامح والعطاء الشامل هي بنية العقل الخلاّق لأنها كونيّة الوجدان. تحدّد كلّ بنية مفاهيم الشرف، الكرامة، التنمية، معنى الحياة..الخ . فالشرف في مفهوم البنية التناسليّة هو شرف الأسرة(الشرف الجنسي)، وهو في مفهوم البنية المادّية شرف العمل والثروة، وهو في نظر بنية العقل الخلاّق شرف

العدل والعطاء والتســـامح. وربّما كان في مقدور التناســـلي إدراك أهمّية التنمية الاقتصاديّة أوالإبداع ولكن عادة ــ في أرض الواقع ــ لا يتوفر له الدافع لينخرط في مثل هذه المشـــاريع. وهكذا تتمايز منظومات القيم وتتمفصل وفقاً لتمايز بنيات العقل.

أما الجنان فلا يعتمد في تصوّر تركيب بنية العقل على المنطق فقط ، بل يعتمد أيضـــا على مكوّن الدلالة في البنية الذي يحدّد المرجعيّة المعرفيّة (الأبستيمة) العاملة ومرجعيّة الفعاليّة السببيّة . بما أنّ المنطق لا يختلف من بنية عقل إلى أخرى، فإنّ المرجعيّة المعرفيّة لكلّ بنية تتحدّد وفقاً لمكوّن الدلالة الذي يختلف من بنية إلى أخرى، حسب مرجعيّتها النهائيّة. ولمّا كانت بنية العقل التناســـلي متدنّية الفاعليّة(بنية وعي قصـــور) فإنّ مكوّنها الدّلالي يقذف بمرجعيّة الفعاليّة السببيّة خارج الذات وخارج الكون، لذا فإن مرجعيّتها المعرفيّة وخطابها يكون ذا طبيعة خرافيّة أســـطوريّة وغيبيّة. بينما تكون المرجعيّة المعرفيّة مادّية، خارج الذات ولكنها ليســـت خارج الكون بالنســـبة للبنية البرجوازيّة، وتكون المرجعيّة المعرفيّة هي الفاعليّة بالنسبة لبنية العقل الخلاّق.

أمّا وعي الإنسان لذاته فيتحدّد بناء على بنية العقل التي يستدمجها، فهو تناسلي إذا كانت البنية المستدمجة تناسليّة، ..الخ. يمنحنا هذا التوصيف

الإحســاس بأنّ العقل الخلاّق مغروس فينا جميعاً، وأنّ ســلّم الفاعليّة في داخلنا، ولكنّنا نعيش بجزء يسير من فاعليّتنا.

بناء على هذا الطرح ـــ الذي عمدنا إلى الإطالة فيه وإبرازه من خلال ما تقدّم ـــ يقدّم الشيخ محمد الشيخ نظريّة عامّة للثقافة. منطلقاً من أن البناء الاجتماعي هو نســـق تنازر(تنازع أو تآزر) بنيات العقل تحت ســـيادة إحداهن. عندئذ تتحقّق الثقافة بوصـــفها جاهزيّة معرفيّة من خلال نســـق تراكب المرجعيّات المعرفيّة والقيميّة، أي أنّ الثقافة هي نســـق تراكب الخطاب التناسـلي والمادّي والخلاّق. كلّ ثقافة أكان ذلك في الماضـي أو الحاضـــر تتراكب من هذه الخطابات. هذا يعني تكافؤ جميع الثقافات، لا توجد أفضـليّة لثقافة على أخرى من حيث التركيب. مع ذلك هناك ثقافات أكثر ديناميّة وفاعليّة، ويرجع السـبب إلى طبيعة بنية العقل السـائدة ومن ثم الخطاب الســـائد. عليه يمكن وصـــف الثقافة بأنها تناســـليّة إذا كان يسـودها الخطاب التناسـلي، ومادّية إذا كان الخطاب مادّيا، وإنسـيّة إذا سـادها خطاب الفاعليّة. في ضـوء هذا الفهم يمكن وصـف كلّ من الثقافة العربية المعاصرة والثقافة الأفريقية المعاصرة بأنها ثقافة تناسليّة، بينما هو واضح أن الثقافة الغربية المعاصرة ثقافة مادّية.

وانطلاقا من فاعلية الإنســـان وبنى العقل التي يعي الإنســـان ذاته من خلالها فإن الثقافة في أيّ مجتمع هي تراكب خطابات البنى الثلاث، وعلى مدى الحقب التاريخيّة. فالثقافة باعتبارها فاعليّة أي جاهزيّة معرفيّة لأجل إنتاج الوســـائل المادّية والقيم الروحيّة ترتبط ارتباطا وثيقاً بفاعليّة الإنسان.

مع علمنا بأن بنية الوعي البرجوازي والبنية الخلاقة تعملان فيها وتشـــقان طريقهما، وبالطبع يقدّر التناســـلي أو البرجوازي أهميّة منظومة القيم الخلاّقة، ولكن عند الممارسة العمليّة لن يجد التناسلي أو المادّي الفاعليّة التي تمكنه من تجســـيد هذه المعاني، لأن هذه المنظومة كونيّة وهي بالضـــرورة تحتاج إلى وجدان كوني. إلا أن الســـائد من خلال عرضـــنا للخصائص والسمات يحدّد لون هذه الثقافة.

هذا لا يعني أن ليس هناك من خصـــوصـــيّات ثقافيّة بيئيّة تنفرد بها مجتمعات متعدّدة في إطار التعدّد والتنوّع البيئي والاجتماعي والثقافي للقارّة الواحدة، ولكنها بمجملها تندرج في ثقافة هذا الفضـــاء بتنوّعها ومكوناتها وعناصرها وأعراقها ولغاتها ودياناتها وبيئاتها المختلفة.

إن نتاج الثقافة يبدأ من الفرد بطقوســـه وثقافته وبنية وعيه، ثم بالجماعة بعرقها ولغتها وعاداتها وتقاليدها وأعرافها، ثم بالمجاميع التي تشـــكلها البيئة.

المبحث الثالث

محاربة البنية للمعارضين لها والمنفلتين عنها

استغلال الدين (المسيحي) في البنية التناسلية في الغرب:

لقد كان المجتمع الغربي قبل سيادة البنية الماديّة (البرجوازيّة) تتحكّم فيه الكنيسة ورجال الدين من كهنة وقساوسة يقفون في وجه ما يحمله العصر من تقدّم وعلم وآراء وأفكار ويفتون بمخالفتها لهذا الدين الذين هم حماته وسدنته. وشهدت العصور التي أطلق عليها (العصور المظلمة) الكثير من المآسي والحروب بين الكنيسة والمفكرين والمبدعين وأضحى فيها الدين سيفاً مسلطاً على تلك المجتمعات لإبقائها في حالة من التخلّف والجهل بقيادة الكنيسة .

يعود ذلك لاحتواء رجال الدين المسيحي وقتها لبنية النصوص وتناقل تفسيراتها القديمة. وصف المؤرّخ الإنجليزي **جيبون** العصور المظلمة بألف سنة من الهمجيّة والدين، ولاحقاً قام المؤرخون بتوسيع المصطلح ليشمل أيضا غياب الكتابات التاريخيّة وانعدام الإنجازات الحضاريّة الماديّة والانحطاط في مختلف المجالات. وقد تميّزت العصور المظلمة في أوروبا بتفشّي الجهل والتزمّت الديني الشديد وتعاظم دور الكنيسة في مختلف

مجالات الحياة وأيضاً بانتشار الحروب العسكريّة بين الشعوب الأوربية والجرمانيّة.

وقد خسرت الكنيسة دينها ونفسها عندما اقتضت مصلحتها التحالف مع الامبراطور قسطنطين وحرّفت دينها ووثّنت النصرانيّة من أجل الاعتراف بها ديناً رسميّا للامبراطوريّة الرومانيّة فإنّها أيضا وكما يقول (مصطفى أنشاصي) في (طغيان الكنيسة في العصور الوسطى الأوربيّة "الحلقة الرابعة") فقد أذلّت أتباعها واستعبدتهم باسم الدين والدين منها براء، عندما تطوّرت العلاقة بين الكنيسة والأباطرة إلى الشراكة في حكم أتباعها في المجتمعات الاقطاعيّة الغربيّة. وفي تلك الفترة لعب رجال الدين – الذين دخلوا على خطّ الإقطاع وتملّكوا الاقطاعيّات الكبيرة – دوراً كبيراً وخطيراً في تخدير مشاعر الفلاحين المستعبدين والمظلومين والمقهورين عند الاقطاعيّين وامتصاص نقمتهم وإجهاض رغبتهم في الثورة والتمرّد على ذلك الظلم بكذبة أنّ لهم – الفقراء – الجنّة وملكوت السماء.

وقد شكّل ظهور الاقطاع وانحياز رجال الدين له بداية تشكّل البنية المجتمعيّة ونمو البنية البرجوازيّة باستغلال الدّين حتى لا تتم الثورة عليها من مجتمع مستدمج لبنية الوعي التناسلي. ولم يكتفِ جشع رجال الدين المسيحي الوقوف عند ذلك الحد، ولكنه كما يؤكّد التاريخ، يورد مصطفى أنشاصي في مقاله: بعد أن استطاعت الكنيسة الهيمنة على الحياة كلّها في

أوروبا والتحكّم في مصائر سكّانها حكّاما ومحكومين وأصبح لها الكلمة الفصل والمطلقة على الجميع امتدّت أيدي الكنيسة ورجال الدين إلى ما في جيوب الفقراء من الزهيد من المال إن توفّر ليسرقوه باسم (صكوك الغفران) التي أعطوا لأنفسهم الحقّ في منحها لهذا وذاك بدعوى التفويض الإلهي للبابا ظلّ الله في الأرض.

لقد توّجت الكنيسة تصرّفاتها الشاذّة وبدعها الضّالة بمهزلة لم يعرف تاريخ الأديان لها مثيلا عندما احتاجت إلى مزيد من السلطة الدينية والنفوذ المالي لمواجهة أعدائها، وقد كان ألدّ وأخطر أعدائها (المسلمون) أثناء الحروب الصليبيّة التي بدأت تلوح علامات هزيمتها فيها بعد أن بلغ ضعف الحماس الديني في نفوس الأوربيّين مبلغاً كبيراً، وفقد المقاتلون ثقتهم في الكنيسة نتيجة لخيبة أملهم في النصر الذي وعدتهم به وعداً قاطعاً. ففكّرت في وسيلة تجعل المقاتل يندفع للاشتراك في الحملة الصليبيّة، فكانت تلك الوسيلة (صكوك الغفران) حيث أصدر المجمع الثاني عشر المعروف باسم مجمع لاتيران 1215م قراراً بمنح البابا حقّ امتلاك الغفران للمذنبين . يقول **ول ديورانت** : إنّ صكوك الغفران كانت توزّع على المشتركين في الحروب الصليبيّة ضدّ المسلمين، وأنّه لم يكن يحظى بالحصول على صكّ الغفران إلاّ أحد اثنين :

1- رجل ذو مال يشتري الصك من الكنيسة حسب التسعيرة التي تحدّدها هي.

2- رجل يحمل سيفه ويبذل دمه في سبيل نصرة الكنيسة والدفاع عنها وحراسة مبادئها.

ويواصل أنشاصي إعطاءنا لمحة تاريخيّة عن ذروة الطغيان الكنسي ضدّ الفقراء والأمراء على حدّ سواء. وكانت أوّل أمرها من أسباب قوّة الكنيسة ودعائم شموخها، حيث قويت الكنيسة وتدعّمت سلطتها بالجحافل البربريّة التي تطوّعت للقتال في سبيلها من أجل الحصول على الغفران... وبالمقابل كانت لها نتائج سلبيّة ووضع حدّ لطغيانها نهائيّا بعد عدّة قرون، فقد انخفضت سلطة الملوك والأمراء والنبلاء الذين كانوا جنوداً للكنيسة يقاتلون بأنفسهم في الحروب الصليبيّة ورأوا أنهم أصبحوا هم وشعوبهم ليسوا إلاّ أدوات أو صنائع رجال الدين يمنّون عليهم بالعفو إن رضوا ويعاقبونهم بالحرمان إن سخطوا، كما أنّ الثراء الذي حصلت عليه الكنيسة جعلها تبدو منافسا قويّا لأصحاب الاقطاعيّات وكبار الملاّك، ما أثار نفوسهم شعور العداوة لها والحقد عليها.

مضافا إلى ذلك الأسباب الأخرى التي تجدها في كلّ الكتب عن الحديث عن ظروف نشأة العلمانيّة في الغرب والثورة ضدّ الكنيسة مثل :

1- الطغيان الديني (محاكم التفتيش) بدءاً من فرض عقيدة التثليث مروراً باضطهاد الكنيسة لكلّ المخالفين لها انتهاء بثورة مارتن لوثر.

2- الطغيان السياسي: فقد تحوّل رجال الدّين إلى طواغيت وسياسيّين محترفين، وتملّكتهم شهوة عارمة للتسلّط ورغبة شرهة في الاستبداد بزعم تطبيق الشريعة، وأنّ البابا ظلّ الله على الأرض، فقد كانت الكنيسة ترى خضوع الملوك لها ليس تطوّعا منهم بل واجباً يقتضيه مركزها الديني وسلطانها الروحي. جاء في البيان الذي أعلنه البابا (نقولا الأوّل) قوله :" إنّ ابن الله أنشأ الكنيسة، بل جعل الرسول بطرس أوّل رئيس لها، وأنّ أساقفة روما ورثوا بطرس في تسلسل مستمرّ متّصل ...(لذلك) فإنّ البابا ممثّل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع (المسيحيّين) حكّاما كانوا أو محكومين ".

3- الطغيان المالي : يستطيع المرء أن يقول دون أدنى مبالغة أنّ الأناجيل (المسيحيّة) لم تنهَ عن شيء نهيها عن اقتناء الثروة والمال، ولم تنفّر من شيء تنفيرها من الحياة الدنيا وزخرفها، وجاءت القرون التالية فشهدت مفارقة عجيبة بين مفهوم الكنيسة عن الدنيا وبين واقع الكنيسة العملي. وهو في الحقيقة ليس سوى توظيفها للدين لمصلحة البنية البرجوازيّة بل كانت قائدة لهذا التحوّل وهي

تعلم مدى سلطة المال الذي سيعزّز نفوذها من جهة، ويجعلها أكثر قوّة وهيمنة وسلطانا من جهة أخرى..

وقد لخّص مصطفى أنشاصي مظاهر الطغيان الكنسي في هذا المجال بما يلي:

- **الأملاك الإقطاعيّة** : يقول ول ديورانت : " أصبحت الكنيسة أكبر ملاّك الأراضي وأكبر السّادة الإقطاعيّين في أوروبا، فقد كان دير "قلدا" مثلا يمتلك (15000) قصر صغير، وكان دير "سانت جول" يملك ألفين من رقيق الأرض، وكان "الكوين فيتور" (أحد رجال الدين) سيّدا لعشرين ألفا من أرقّاء الأرض، وكان الملك هو الذي يعيّن رؤساء الأساقفة والأديرة، وكانوا يلقّبون بالدوق والكونت وغيرها من الألقاب الإقطاعيّة. وكانت أملاكها الزمنيّة أي الماديّة وحقوقها والتزاماتها الإقطاعيّة ممّا يجلّل بالعار كلّ (مسيحي) متمسّك بدينه، وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين ومصدراً للجدل والعنف بين الأباطرة والباباوات".
- **الأوقاف** : كانت الكنيسة تملك المساحات الشاسعة من الأراضي الزراعيّة باعتبارها " أوقافاً" للكنيسة بدعوى أنّها تصرف عائداتها على سكان الأديرة وبناء الكنائس وتجهيز الحروب الصليبيّة، إلاّ أنّها أسرفت في تملّك الأوقاف حتّى وصلت نسبة أراضي الكنيسة

في بعض الدول درجة لا تكاد تصدّق. وقد قال المصلح الكنسي "ويكلف" وهو من أوائل المصلحين :" إنّ الكنيسة تملك ثلث أراضي انجلترا وتأخذ الضرائب الباهظة من الباقي، وطالب بإلغاء هذه الأوقاف واتّهم رجال الدين بأنّهم "أتباع قياصرة لا أتباع الله".

- **العشور**: فرضت الكنيسة على أتباعها ضريبة "العشور" وبفضلها كانت الكنيسة تضمن الحصول على عُشر ما تغلّه الأراضي الزراعيّة والإقطاعيّات، وعُشْر ما يحصل عليه المهنيّون وأرباب الحرف غير الفلاّحين، يقول ويلز : " وكانت الكنيسة تجبي الضرائب ولم يكن لها ممتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب، بل فرضت ضريبة العشور على رعاياها، وهي لم تدعُ إلى هذا الأمر بل طالبت به كحق".
- **ضريبة السنة** : لم تُشبع الأوقاف والعشور نهم الكنيسة الجائع وجشعها البالغ بل ظلّت ترهق كاهل رعاياها بالرسوم والضرائب الأخرى، ولمّا تولّى البابا حنّا الثاني والعشرين جاء ببدعة جديدة هي " ضريبة السنة الأولى" وهي مجموعة الدخل السنوي الأوّل لوظيفة من الوظائف الدينيّة أو الإقطاعيّة، تُدفع للكنيسة بصفة إجباريّة، وبذلك ضمنت الكنيسة مورداً ماليّاً جديداً .

- **الهبات والعطايا** : كانت الكنيسة تُحظى بالكثير من الهبات يقدّمها الأثرياء والإقطاعيّون للتملّق والرياء، أو يهديها البعض بدافع الإحسان والصدقة، كما أنّهم كانوا يخشون غائلة غضب الكنيسة بحرمانهم من المغفرة عند الاحتضار على الأقل. وقد قويت هذه الدوافع بعد مهزلة صكوك الغفران إذ انهالت التبرّعات على الكنيسة وتضخّمت ثروات رجال الدين .
- **العمل المجّاني** : "السخرة" لم تقتنع الكنيسة ورجال الدين بامتلاك الإقطاعيّات برقيقها بل أرغمت أتباعها على العمل المجّاني في حقولها وفي مشروعاتها، لا سيّما بناء الكنائس والأضرحة، وكان على الناس أن يرضخوا لأوامرها ويعملوا بالمجّان لمصلحتها مدّة محدّدة هي في الغالب يوماً واحداً في الأسبوع، ولا ينالون مقابل ذلك جزاءً ولا شكورا.
- **المواسم المقدّسة والمهرجانات الكنسيّة** : التي كانت تدرّ الأموال الطائلة على رجال الكنيسة، فمثلاً في سنة 1300م عُقد مهرجان لليوبيل واجتمع له جمهور حاشد من الحجّاج في روما بلغ من انهيال المال إلى خزائن البابويّة أن ظلّ موظفان يجمعان بالمجاريف الهبات التي وضعت عند قبر القدّيس بطرس.

وهكذا كانت الجماهير ترزح تحت أثقال الكنيسة وأعبائها الماليّة المرهقة، وكان الملوك والأباطرة ورجال الدّين الصغار يحسّون بذلك أيضاً، ولم يكن في وسع أحد أن يرفض شيئاً من ذلك ، فالشعب خاضع تلقائيّا لسطوتها، والملوك كانوا يخشون بأسها من جهة كما كانت بينهما مصالح مشتركة من جهة أخرى. إذ كانت الكنيسة تمدّهم بأسباب البقاء، ولكنّهم كانوا يتحيّنون الفرصة لإعلان احتجاجهم. يقول تولستوى: " لقد استولى حبّ السلطة على قلوب رجال الكنيسة يسعون لتوطيد سلطة الكنائس من جهة، ويساعدون الحكومات على توطيد سلطتها من جهة أخرى" إذن فمصلحة السلطتين تقتضي بقاء الأوضاع على صورتها الواقعة .

الصراع بين الكنيسة والعلم : بما أنّ الدين بصبغته الإلهيّة النقيّة لم يدخل المعركة في أوروبا العصور الوسطى، فإن صحّ أن نسمّي ما حدث في الغرب صراعاً بين الكنيسة والعلم وليس بين الدين والعلم، وقد كان الصراع نتيجة خطئين فادحين ارتكبتهما الكنيسة :

أحدهما : تحريف حقائق الوحي الإلهي وخلطها بكلام البشر، والخرافات الوثنيّة والمعلومات البشريّة التي جعلتها الكنيسة عقائد إلهيّة تدخل في صلب الدين وصميمه، وعدّت الكفر بها كفراً بالوحي والدّين .

والآخر: فرض الوصاية الطاغية على ما ليس داخلاً في دائرة اختصاصها، وحاسبت الناس لا على معتقدات قلوبهم فحسب بل على نتائج قرائحهم وبنات أفكارهم.[1]

استغلال الدين (الإسلامي) في البنية التناسليّة لدى العرب:

في البنية التي يستدمجها العرب والمسلمون فقد تمّ توظيف الدين ليتواءم مع العرف والتقاليد من ناحية وليسند السلطة السياسيّة من جانب آخر وكذلك ليبرّر لرجال الدين انفلاتهم نحو البنية البرجوازية على خطى رجال الكنيسة في العصور الوسطى مستغلّين ظلام الجهل الذي تعيش فيه هذه المجتمعات. فالهدف من إقامة مجتمع متديّن أو تحكمه جماعة تدّعي أنّها متديّنة وأبعد عن الفساد وأكثر طمأنينة وأكثر عدلاً اجتماعيّا وأكثر رخاء اقتصاديّا بحكم هذا الوازع الديني، وهذا ما لم نجده عبر تاريخ المجتمعات التي يسيطر عليها رجال الدين، ولم يثبت التاريخ حتّى الآن أن وجد مثل هذا المجتمع، لسبب بسيط هو أنّ البنية المجتمعيّة (أي بنية الوعي السائدة في المجتمع) سابقة للخطاب الديني، ومن ثمّ فهي تكيّف النص الديني وتوظّفه وفق ضوابط البنية وخصائصها المتحكّمة فيها وسماتها التي

[1] مصطفى أنشاصي، طغيان الكنيسة في العصور الوسطى الأوربيّة، الحلقة الرابعة، شبكة الناقد الإعلامي.

تحكمها وليس العكس أي أن تستبدل وعيها بما جاء به الخطاب الديني، ورجال الدين لا يعدو دورهم النقل فقط من التراث الديني بتعدّد الآراء فيه وتنوّع بُنى وعي المجتهدين وتعدّد المذاهب التي اختطوها منذ العصر العبّاسي، فالنسخة الإسلاميّة التي وصلتنا هي نتاج عصر التدوين الأوّل في العصر العبّاسي حاملة معها ما تمّت إضافته عبر العصور المتعاقبة كأيّ تراث يتدحرج ككرة الثلج تكبر عبر مرورها بحقب وعصور وبيئات مختلفة.

لقد أغرم رجال الدّين الإسلامي بالسلطة منذ بواكير الإشعاع الإسلامي فتطلّع بنو العبّاس لخلافة الرسول صلى الله عليه وسلم ولكنّ الأمر أفلت من أيديهم، لكنّه ظلّ حلماً يراودهم فما أن انتهى الصراع بعد الفتنة الكبرى حتى قفز بنو أميّة على السلطة، ومنذ تلك الفترة فقد تمّ تسييس الدّين واستغلاله لصالح الحاكم، فقد تحوّل نظام الخلافة من قاعدة الشورى الذي كان قد تقرّر مبدأ في القرآن الكريم (وأمرهم شورى بينهم) و(وشاورهم في الأمر) حيث تقوم هذه القاعدة على مبدأ العدالة والمساواة بين جميع المسلمين، إلاّ أنّه وبمجرّد أن انتقلت الخلافة إلى بني أميّة متزعّماً لهم معاوية بن أبي سفيان تمّ استبدال القاعدة التي أسّس لها الإسلام (الشورى) إلى نظام (الإرث).

هكذا احتوت البنية النص ووظّفته لصالحها فقد عهد معاوية بالخلافة لابنه يزيد، وانتزع له البيعة بالمال لمن يخضع للمال وبالقوّة لمن يرضخ للقوّة، ومن بعد يزيد انتقلت إلى بني مروان ابن الحكم بعد أن تنازل معاوية الثاني ابن يزيد عنها، وأصبح الخليفة يعهد إلى ابنين أوأكثر من أبنائه يتوارثون الخلافة بالترتيب الذي يقرّره كما فعل عبدالملك بن مروان بن الحكم حيث عهد بها إلى أبنائه: الوليد ثمّ سليمان ثمّ يزيد ثمّ هشام إلاّ أنّ عمر بن عبدالعزيز توسّط بين سليمان ويزيد بعهد من سليمان.

استقرّ نظام الخلافة في الدولة الإسلاميّة على نظام الإرث وأصبحت البيعة رسماً شكليّا يقبل عليها الناس وتؤخذ على أمرائهم وكبرائهم وعلمائهم أغلظ الأيمان مع الحلف بالطلاق والعتاق حتى لا يتحلّلون منها.

ونتيجة لهذا الانحراف الخطير بدأت الحركات الباطنيّة حيث خرج المختار في العراق حاملاً لأفكار ابن سبأ، وكتب والي بني أميّة على خراسان لمروان بن محمد آخر حكّام بني أميّة قائلا:

أرى خلل الرماد وميض جمر وأخشى أن يكون لها ضرام

فإنّ النار بالعيدان تذكي وإنّ الحرب مبدؤها الكلام

فقلت من التعجّب ليت شعري أأيقاظ أميّة أم نيام

كانت الثورات المتوالية على الخليفة تشغله عن الاهتمام بكامل الدولة المترامية الأطراف، وظهر القائد أبو مسلم الخراساني قرب مدينة مرو واحتلّها عام 130هـ وتراكض الناقمون على الدولة الأمويّة من الفرس للالتحاق بجيشه، فقد كانت العصبيّة للعرب والاعتماد عليهم في أركان الدولة الأمويّة سبباً في تأجيج الصراع مع الفرس. سقطت خراسان كلّها بأيدي العبّاسيين، ثمّ توجّهت الجيوش إلى العراق وتمّ احتلالها، وظهر (أبوالعباس السفّاح) من مخبئه وبُويع بالخلافة عام 132هـ. ومنذ ذلك التاريخ بدأ الحكم الفعلي للفرس، حيث كان خلفاء بني العبّاس أشبه بالضيوف في بيت أبي مسلم الخراساني أو في بيت جعفر البرمكي الفارسي، وأضحت العصبيّة التي نهى عنها الإسلام هي السائدة علناً انطلاقا من بنية الوعي المجتمعي وليس من الإسلام، وأشفى الخراساني غليل الفرس من العرب المسلمين، فأشبعهم قتلاً وتنكيلاً وبطشاً منذ قيام الدولة العباسيّة وحتى عام 137هـ. كما أنّه شقّ على الخليفة عصا الطاعة وحاول أن يستقلّ بخراسان، لولا أنّ الخليفة المنصور استدرجه، وفرّق معظم أتباعه ثمّ قتله عام 137هـ. ثمّ خرج "سنباذ" يطالب بدم أبي مسلم، فبعث إليه أبوجعفر المنصور جيشاً هزمه في همذان والرّي. وفي 141هـ ظهرت جماعة من الخراسانيّين من جماعة أبي مسلم في قرية رواندا قرب أصفهان وعرفوا بالراونديّة، وكانوا يقولون بتناسخ الأرواح، ونادوا بألوهيّة المنصور، وأرادوا

من وراء ذلك قتله ثأرا لزعيمهم أبي مسلم، لكنّ المنصور قاومهم بنفسه وانتصر عليهم.

وفي عام 161هـ ظهر رجل فارسيّ أطلق عليه اسم (المقنّع) وادّعى أنّ الله سبحانه قد حلّ بآدم ثمّ نوح ثمّ في أبي مسلم الخراساني ثم حلّ فيه بعد أبي مسلم، واجتمع عليه خلق كثير تغلّب بهم على بلاد ما وراء النهر، واحتمى بقلعة "كش" فأرسل إليه الخليفة المهدي جيشا بقيادة سعيد الجرشي، فحاصره وهزمه وقتل كثيراً من أصحابه، فلمّا أحسّ بالهلكة شرب سمّا وسقاه نساءه وأهله فمات وماتوا جميعا، ودخل المسلمون قلعته واحتزّوا رأسه وأرسلوه إلى المهدي سنة 163هـ.

كما أنّ المهدي أنشأ هيئة مهمّتها التنقيب والبحث عن الزنادقة وجعل لها رئيساً أطلق عليه اسم "صاحب الزنادقة" كما أوصى المهدي ابنه الهادي بتتبّع الزنادقة والبطش بهم، ورغم ذلك وبصورة سريّة تمكّنوا من احتلال أغلب المناصب في دولة بني العباس، وبلغ أحدهم (الإفشين) قائد جيوش المعتصم.

وقد حاول المعتصم (ابن الجارية التركيّة) الاستعانة بالترك ضدّ الفرس حتى كان أكثر عسكر المعتصم منهم، وقد شعر ابنه المتوكّل بتزايد نفوذهم فحاول الاستعانة بالعرب ضدّهم، ونقل العاصمة إلى دمشق، ولكن بعد

فوات الأوان بعد أن قمع خلفاء بني العباس الأوائل العرب وأذهبوا عصبيّتهم القويّة، ثمّ أتى عهد الرشيد فأفسدهم بالمال الكثير الذي صار يغدقه عليهم، فلمّا أحسّ الأتراك به قتلوه وغلبوا على الملك من بعده، ثمّ قتلوا أولاده واحداً بعد الآخر إلى أن خالط المملكة الديلم وصار الحكم لهم كليّة حتى لم يعد للخليفة العبّاسي إلا الاسم.

وقد ذكرت كتب التاريخ عن الخليفة التاسع عشر في ترتيب خلفاء الدولة العباسيّة (القاهر بالله محمد بن الخليفة المعتضد بن الموفق طلحة بن الخليفة المتوكّل العبّاسي أنّه تولّى الخلافة في شوال 320هـ بعد مقتل أخيه الخليفة المقتدر بالله، فكان أوّل همّه بعد تولّي الخلافة مصادرة أموال أسرة أخيه خاصّة أم أخيه والتي هي زوجة أبيه، فلقد ضربها وعذّبها بشدّة حتّى أجبرها على التنازل عن أملاكها له، ثمّ أخذ في تتبّع كبار رجال دولة أخيه فقتلهم الواحد تلو الآخر، فقتل قائد الجيوش "مؤنس الخادم" وبليق الحاجب وولده عليّا، وقتل خصومه الذين كانوا يزايدون عليه قبل تولّي الخلافة. وكانت أخلاقه في منتهى السوء والخسّة والنذالة، فلقد أمر ببيع كلّ الجواري المغنّيات في بغداد على أنّهنّ سواذج، ثمّ دسّ في الأسواق من اشتراهنّ بأبخس الأثمان، ومنع بيع الخمر وعاقب عليه بشدّة، وكان لا يكاد يفيق من السكر، وانقلب على كلّ من ساعده، وفتك بأصدقائه قبل خصومه، ولكن بقي رجل واحد أفلت منه فلم يقدر عليه هو الوزير ابن مقلة، حيث

كان شديد الدهاء والحيطة والحذر. قام بتأليب الناس عليه واجتمع مع قادة الجند والكبراء والأعيان وملأ صدورهم ضدّ القاهر بالله حتى أجمعوا رأيهم على خلعه وسمل عينيه في 5 جمادى الأولى 322هـ.[1]

وأمرُ القرامطة الذين خرجوا عام 286هـ في الأحساء والبحرين في وقت كان الترف قد اشتدّ بالأمّة الإسلاميّة، فقائدهم " أبوطاهر سليمان" الذي قطع الطريق على حُجّاج العراق عام 312هـ فأخذ الأموال والحريم والمتاع وترك الرجال بدون طعام أوماء في الصحراء ليموت أغلبهم جوعاً وعطشاً، وفي عام 315هـ قصد بغداد والتقى بجيش المسلمين في الأنبار، وفرّ من أمامه جيش المسلمين، وفي عام 317هـ اتجه إلى مكّة فدخلها يوم التروية فقتل الحجيج في المسجد الحرام ودخل البيت المعمور، وعرّى البيت وقلع بابه وقلع الحجر الأسود وأخذه معه إلى عاصمته هجر، وقد رُوي أنّه قد قتل ثلاثين ألفا من النساء والغلمان، وكان ينشد وهو يقتل الحُجاج الأبرياء من سكان مكّة:

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا

[1] راجع الكامل في التاريخ ج5: 164-309 ، والبداية والنهاية والمنتظم وتاريخ الخلفاء

والعبيديّون هم ذريّة عبدالله بن ميمون مؤسس المذهب الاسماعيلي، وقد ادّعو النسب الفاطمي، تمكّنوا من الاستيلاء على تونس، ثمّ استولى جيشهم بقيادة جوهر الصقلّي على مصر 362هـ .

وقد أشاع الفاطميّون فكرة تقديس الأئمّة وعصمتهم من الخطأ وتأليههم بين الناس، فنظر مسلمو مصر إلى الخليفة المعز لدين الله الفاطمي نظرة تأليهيّة، كما اعتقد الخلفاء الفاطميّون في أنفسهم ذلك وراحوا يثبتونه بشتى الطرق المخادعة، واعتقدوا في أنفسهم أنّهم أعلى من سائر البشر، وكان هذا واضحا في عبارات الخليفة المعز لدين الله الفاطمي فقد قال : " أنا كلمات الله الأزليّات، وأسماؤه التامّات، وأنواره الشعشعانيّات، وأعلامه النيّرات، ومصابيحه النافذات، لا يخرج منّا أمر، ولا يخلو منّا عصر " وهذا ما دفع الشاعر ابن هانئ الأندلسي(320هـ / 932م) إلى مدحه في قصيدة طويلة :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهّار

وكأنّما أنت النبيّ محمد وكأنّما أنصارك الأنصار

أنت الذي كانت تبشرنا به في كتْبها الأحبار والأخبار

هذا الذي ترجى النجاة بحبّه وبه يحطّ الإصر والأوزار

تلك لمحة تاريخيّة توضّح مدى استغلال البنية التناسليّة المغلقة للدين الإسلامي واستغلالها الخطاب الديني وتوظيفها له سياسيّا.

القتل والبطش والتنكيل باسم الإسلام:

أمّا توظيف البنية للدّين لقمع أشهر علماء المسلمين واتهامهم بالزندقة والإلحاد، وأحيانا لمجرّد مخالفتهم الرأي الذي تعتنقه السلطة الدينيّة الحاكمة، فقد عرفنا أنّ الخلفاء ادّعوا أنّ سلطانهم مستمدّ من الله، وأنّه حقّ إلهي ممنوح لهم يحكمون الناس بهذا الحق وأنّ طاعتهم مفروضة على الشعب لأنّها من طاعة الله، وقد أضحى اسم الخليفة منذ خلافة عبدالملك بن مروان (خليفة الله) وليس (خليفة رسول الله) وأنّ ما يفعله الخليفة وما يأمر به إنّما هو من أمر الله وقدره فلا يُسأل. ومن أجل ذلك حاربوا من يقول بأنّ الإنسان يخلق أفعاله بقدرته وأنّه يُسأل عنها، لأنّهم إنّما يفعلون ما يصدر عنهم بأمر الله فلا يُسألون عمّا يفعلون.

وخلفاء بني العبّاس برّروا سلطانهم وفق ما عبّر عنه أبوجعفر المنصور في خطبة بيعته بقوله " إنّما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده".

وأمام مشاهد الظلم والاستبداد وقف الفقهاء ورجال الدين فريقين:

فريق أراد الدنيا فدخل في دنيا الخلفاء ونال حظّه منها، ومنهم من زيّن أفعالهم فازداد منهم قربا. وفريق أراد الآخرة وسعى لها فابتعد عنهم وصمت على مضض وأبى أن ينال عملاً من ولاية أو قضاء لكيلا يعمل تحت حكم جائر فيُسأل منه. ومن هؤلاء الإمام أبوحنيفة النعمان وسفيان الثوري وعبدالله بن إدريس وعبدالله بن وهب ووكيع بن الجرّاح وآخرون منهم من تزهّد وتصوّف وأعرض عن الدنيا واعتزل أهلها ومنهم إبراهيم بن أدهم والفضيل بن عيّاض وجعفر بن مبشر والحارث المحاسبي وذوالنون المصري.

ومن ظواهر الاستبداد في الأندلس إقدام المعتضد بن عباد أمير إشبيليّة على الغدر ببعض أمراء الطوائف الذين كان يطمع بالاستيلاء على أملاكهم، فقد دعاهم إلى حفلة أقامها لهم حتى إذا حضروا أطعمهم ثمّ حبسهم في مكان مغلق وقتلهم واحتفظ برؤوسهم في صناديق.

ومثله ما أقدم عليه الخليفة أبوجعفر المنصور فقد وجد في خزائنه جماجم قتلاه من بني أميّة. وكذلك فعل الحاكم بأمر الله وجرى ابنه الظاهر على سنّته فقد روى السيوطي أنّه دعا سنة 423هـ ألفين وستمائة جارية فحضرن بأكمل زينتهنّ، فلمّا اكتمل جمعهنّ بنى عليهنّ بيتا، ثمّ أضرم النار فاحترقن.

ومن مظاهر الاستبداد إكراه الناس على أمر اعتقد الخليفة صوابه وآمن به، كما فعل المأمون حين طلب من الفقهاء أن يؤمنوا معه بأنّ القرآن مخلوق،

فمن لم يستجب له أمر بقطع رزقه وحبسه ومنهم من مات في حبسه كما جرى مع أبي مسهر الغسّاني شيخ مشايخ الشام.

وسار المعتصم من بعد أخيه المأمون سيرته في امتحان الفقهاء بمحنة (خلق القرآن) فجلد الإمام أحمد بن حنبل حتّى تقطّع جلده. وزاد في الشدّة من بعده ابنه الواثق فقتل الفقيه أحمد بن نصر الخزاعي بيده وصلبه، وأمر بسجن الفقيهين البويطي وابن حمّاد فماتا مسجونين.

ومن مظاهر الاستبداد كذلك أن يأمر الخليفة بقتل من يعكّر صفو مزاجه كما فعل الأمين حين جلس يصطبح في بستان قصره، وهو محاصر من قبل جيش أخيه المأمون، فدعا جاريته لتغنّيه فغنّته بشعر تشاءم منه فرماها بكأس شرابه وأمر أن تلقى في حظيرة السباع.

وقد أورد ابن كثير في البداية والنهاية (م9– ص379) قصّة ذبح الجعد بن درهم على يد أمير العراق خالد بن عبدالله القسري " وأمّا الجعد فإنّه أقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن، فتطلبه بنو أميّة فهرب منهم فسكن الكوفة، فلقيه فيها الجهم بن صفوان فتقلّد هذا القول عنه، ثمّ إنّ خالد بن عبدالله القسري، قتل الجعد يوم عيد الأضحى بالكوفة، وذلك أنّ خالدا خطب الناس، فقال في خطبته تلك : أيّها الناس، ضحّوا يقبل الله ضحاياكم، فإنّي مضحٍّ بالجعد بن درهم، إنّه زعم أنّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلّم

موسى تكليما، تعالى الله عمّا يقول الجعد علوّا كبيرا، ثمّ نزل فذبحه في أصل المنبر". وخالد القسري يقول القاضي ابن خلّكان : كان يتّهم في دينه، بنى لأمّه كنيسة تتعبّد فيها، ويقول الفرزدق شعرا:

ألا قبّح الرحمن ظهر مطيّة أتتنا تهادى من دمشق بخالد

وكيف يؤمّ الناس من كان أمّه تدين بأنّ الله ليس بواحد

بنى بيعة فيها الصليب لأمّه ويهدم من بغضٍ منار المساجد

وأمّا التنكيل والبطش فقد نال من العلماء:

أبوحنيفة: اتّهم في حياته وبعد وفاته بمخالفة السنّة ولقد نفى عن نفسه هذه التهمة بقوله " إنّا نأخذ أوّلا بكتاب الله ثمّ السنّة ثمّ بأقضية الصحابة ونعمل بما يتفقون عليه فإن اختلفوا قسنا حكماً على حكم بجامع العلّة بين المسألتين حتى يتّضح المعنى" كان أعداؤه فقهاء الدولة في العصر الأموي حتّى إذا جاء العصر العبّاسي تحوّلوا إلى الحكّام الجدد واحتالوا عليهم بالنفاق حتّى أصبحوا هم أهل الشورى، يزيّنون لهم كلّ ما زيّنوه للحكّام السابقين من طغيان وعدوان وبغي واستغلال وبطش بالمعارضين. وقد أصدر الخليفة أمراً بمنع أبي حنيفة من التعليق على أحكام القضاء، وبمنعه من الفتوى. وإذا ما احتاج الخليفة إلى رأي في أمر معقّد لا يطمئنّ فيه إلى فتاوى

الفقهاء من متملّقيه أرسل يستفتي أبا حنيفة، فامتنع عن الفتوى إلاّ أن يأذن له الخليفة بذلك.

أحمد بن حنبل: اعتقد المأمون برأي المعتزلة في مسألة خلق القرآن، وطلب من ولاته في الأمصار عزل القضاة الذين لا يقولون برأيهم. وقد رأى أحمد بن حنبل أنّ رأي المعتزلة يحوّل الله إلى فكرة مجرّدة لا يمكن تعقّلها فدافع ابن حنبل عن الذات الإلهيّة، ورفض قبول رأي المعتزلة، فيما أكثر العلماء والأئمّة أظهروا قبولهم برأي المعتزلة خوفاً من المأمون وولاته. وألقي القبض على الإمام ابن حنبل ليؤخذ إلى المأمون. وطلب الإمام من الله أن لا يلقاه، لأنّ المأمون توعّد بقتل الإمام أحمد، وفي طريقه إليه وصل خبر وفاة المأمون. فتمّ ردّه إلى بغداد وحُبس، وولي السلطة المعتصم الذي امتحن الإمام وتمّ تعرّضه للضرب بين يديه وقد ظلّ ابن حنبل محبوساً طيلة ثمانية وعشرين شهرا.

مالك بن أنس: كان الإمام مالك بن أنس يبتعد عن الثورات والتحريض عليها، وعن الفتن والخوض فيها، ومع ذلك فقد نزلت به محنة في العصر العبّاسي في عهد أبي جعفر المنصور، وقد اتفق المؤرخون على نزول هذه المحنة به سنة 146هـ، وقيل 147هـ. وقد ضُرب في هذه المحنة بالسياط ومدّت يده حتى انخلعت كتفاه، ومردّ ذلك على الأكثر أنّه كان يحدّث بحديث : " ليس على المستكره طلاق " فاتخذ مروّجو الفتن من هذا الحديث

حجّة لبطلان بيعة أبي جعفر المنصور، وذاع هذا وشاع، فنُهي عن أن يحدّث بهذا الحديث، ثمّ دُسّ إليه من يسأله عنه، فحدّث به على رؤوس الناس فضُرب. والذي أنزل به المحنة هو والي المدينة جعفر بن سليمان. وذلك ما جعل أهل المدينة يسخطون على بني العباس وولاتهم حين رأوا فقيههم وإمامهم ينزل به ذلك النكال.

ابن رشد (1126–1198م) هو محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي، درس الفقه والأصول ومن علوم الأوائل الطب والرياضيات والفلسفة وتولّى القضاء سنوات في إشبيلية ثم في قرطبة، نشأ في ظلّ دولة الموحّدين، وبتأثير العامّة أُمر بإبعاده إلى (أليسانة) قرب غرناطة ثمّ نفي إلى بلاد المغرب ونكّل به وأحرقت كتبه، وتوفي في مراكش عن 75 سنة وأصدر المنصور يعقوب مرسوماً بتحريم الاشتغال بالفلسفة.

الفارابي (870– 950م) : هو أبونصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان، مدينته فاراب، وهي مدينة من بلاد الترك في أرض خراسان، غادر مسقط رأسه إلى العراق لمتابعة دراساته العليا، فدرس الفلسفة والمنطق والطب كما درس العلوم اللسانيّة العربيّة والموسيقى، ومن العراق إلى مصر والشام حيث التحق بقصر سيف الدولة في حلب واحتلّ مكانة بارزة بين العلماء والأدباء والفلاسفة. وحاول أن يثبت أن لا خلاف بين الفلسفة اليونانية وبين عقائد الشريعة الإسلاميّة، قال عنه الذهبي في سير الأعلام:

إنّ له تصانيف مشهورة من ابتغى منها الهدى ضلّ وحار. وقال عنه ابن عماد في شذرات الذهب إنّه أكثر العلماء كفراً وزندقة، حتى أنّ الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال أكّد أنّه لا شكّ في كفره هو وابن سينا، وكان الاتهام يشمل إنكاره يوم القيامة وأنّ الأجساد تقوم، وأنّ الله يعلم الكليات لا الجزئيّات، وأنّ العالم ليس محدث أو مخلوق وإنما هو أزلي الوجود كالله.

الكندي (811- 866م) هو يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمّد الأشعث الكندي، ينتهي نسبه إلى ملوك كندة فهو عربيّ أصيل، ومن ذلك لقبوه بفيلسوف العرب. نال حظوة عند المأمون والمعتصم والواثق، وعلت منزلته عندهم، غير أنّه لقي عنتا من المتوكّل بسبب الأخذ بمذهب المعتزلة، فأمر المتوكّل بضربه ومصادرة كتبه. اتهم بالزندقة، وكان يدافع عن نفسه بأنّ أعداء الفلسفة جهلة وأغبياء وتجار دين.

الجاحظ (767-868م): هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي بالولاء الشهير بالجاحظ. كبير أئمّة الأدب. قضى أكثر عمره في البصرة وقصد بغداد بدعوة من المأمون وعيّنه في ديوان الرسائل وجعل له الصدارة فيه، واستعفى فيه من منصبه بعد ثلاثة أيّام إلاّ أنّه بقي مخلصا للمأمون. للجاحظ من الكتب ما يزيد على المائتي كتاب، وهي كما قال ابن العميد:" تعلّم العقل أوّلا والأدب ثانيا " وقد نشر منها كتاب الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء ومجموعة من الرسائل. كان يؤمن أنّ القرآن حادث ومخلوق لأنّه

شيء من الأشياء، وكان يؤيّده الخليفة المأمون. ومن مؤلفاته التي توضّح ذلك كتاب "خلق القرآن" وفي هذا أثار نقمة السنّة من أهل الإسلام الذين نادوا بأنّ القرآن غير مخلوق، وهذا وضعه على قائمة الملاحدة والزنادقة.

بشّار بن برد (710–784م) : هو بشار بن برد بن يرجوخ العقيلي بالولاء. أصله من طخارستان غربي نهر جيحون، ونسبته إلى امرأة من بني عقيل قيل إنّها اعتقته. نشأ في بني عقيل واختلف إلى الأعراب المقيمين ببادية البصرة فشبّ فصيح اللسان،صحيح البيان. وُلد أكمه (أعمى)، وهو أشعر المولّدين والمتقدّم فيهم، اتهم بالزندقة فأمر الخليفة المهدي بضربه، فمات تحت السياط، ودفن بالبصرة. كان بشّار شعوبيّا زنديقا فهو القائل:

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبيّنوا يا معشر الفجّار

النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سموّ النار

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

صالح بن عبد القدوس (ت 777م): صالح بن عبد القدوس بن عبدالله بن عبدالقدوس من أهل البصرة، كان يجلس للوعظ ويقصّ الأخبار، غير أنّه كان يزيّن الثنويّة (دين الفرس القديم) فلمّا اشتهر أمره استقدمه الخليفة المهدي، لكنه هرب إلى دمشق واستخفى بها زمنا، فلمّا عرف المهدي

مكانه، وجّه إليه قريشا الحنظلي فقبض عليه وجاء به إلى بغداد، فحاكمه المهدي ثم قتله سنة 777م. وصلبه على جسر بغداد.

أبوالعلاء المعرّي (979-1058م): أحمد بن عبدالله بن سليمان المعرّي، ولد في معرّة النعمان بالشام، عندما بلغ الرابعة من عمره أصابه الجدري فأفقده عينيه، ولم يمنعه ذلك من أن يظهر في مؤلفاته هذا التنوّع وتلك الدراية الواسعة بالعلوم التي قلّ أن نجد لها نظيراً عند غيره، عُرف بأنّه عالم متبحّر وشاعر مطبوع متأثربأسلوب المتنبّي. ولم تظهر موهبته الفريدة إلاّ في كتبه المتأخرة التي كتبها بعد عودته إلى المعرّة "اللزوميات" و "رسالة الغفران" اعتبر رهين المحبسين بعد أن اعتزل الناس بفقده لأمّه. وقد خرج أبو العلاء في اللزوميات على قيود العقيدة التي كانت تقيّده، وسما بنفسه إلى مستوى أعلى. عدّه الكثيرون من معاصريه زنديقاً . كان يؤمن بالتوحيد، ولكنه لم يأخذ بنظريّة الوحي الإلهي، فالدين عنده من صنع العقل الإنساني ونتيجة للتربية والعادة. وكان دائماً يهاجم أولئك الذين يستغلّون استعداد العامّة لتصديق الخرافات بقصد اكتساب السلطة والمال. يقول في اللزوميّات:

قد ترامت إلى الفساد البرايا واستوت في الضلالة الأديان

ويقول كذلك:

وإذا ما سألت أصحاب دين غيّروا بالقياس ما رتّبوه

لا يدينون بالعقول ولكن بأباطيل زخرف كذّبوه

الحلاّج (858–922م) : هو الحسين بن منصور بن محمي، الملقب بالحلاج أبو مغيث، فيلسوف متصوّف، بعض المؤرخين يعدّه من الزهّاد المتعبدين، وبعضهم يعدّه من الزنادقة الملحدين. أصله من مدينة (البيضاء) بفارس، ونشأ بواسط وانتقل إلى البصرة، وكانت تروى عنه أمور تعدّ من الخوارق، كانت عقيدته الصوفيّة تقوم على وحدة الوجود أي أنّ الإنسان مندمج في ذات الله. وكان شاعراً مجيداً، وقد عبّر عن صوفيّته وفلسفته بأشعار نظمها منها قوله في علاقته بالله:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

ولمّا رفع أمره إلى الخليفة المقتدر أمر أبا الحسن الراسبي ضامن خراج الأهواز أن يأتيه به، فقبض عليه وتمّ حمله إلى بغداد سنة 301هـ فصلب على جذع شجرة، ثمّ سجن وظلّ مسجوناً ثماني سنين، ثمّ عقد له مجلس من القضاة والفقهاء، فشهد عليه أناس بما يدينه بالزندقة والإلحاد، فصدر الحكم بقتله وإحلال دمه، فسلّم إلى (نازوك) صاحب الشرطة فضرب ألف سوط، ثمّ قطعت أربعة أطرافه ثمّ حزّ رأسه وأحرقت جثّته.

ابن مقلة (886–940م): هو أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة الشيرازي، كان من أشهر خطّاطي العصر العباسي، وأوّل من وضع أسساً مكتوبة للخط العربي، يعتقد أنّه مخترع خط الثلث، وكان خطه يضرب به المثل في عهده، وهو كذلك وزير وأديب وشاعر مبدع وناثر بليغ، تقلّد الوزارة ثلاث مرّات في زمن ثلاثة خلفاءعبّاسيين هم المقتدر بالله والقاهر بالله والراضي بالله، وكان من إنجازاته أنّه أوّل من هندس حروف الخط العربي ووضع لها القوانين والقواعد، وأوّل من كتب مصنّفا في الخطّ العربي ذكر فيها مصطلحات هذا العلم البديع، ثمّ وُشي به فقطع الراضي بالله يده اليمنى، وقيل أنّها ألقيت في دجلة، وكان يبكي على يده ويقول: " قد خدمت بها الخلافة ثلاث دفعات لثلاثة من الخلفاء، وكتبت بها القرآن دفعتين، تقطع كما تقطع أيدي اللصوص" فكان يكتب بيده اليسرى، وكتب أبياتا فريدة في معناها العميق، مملوءة بحزن سرّي عجيب فقال:

ما سئمت الحياة لكن توثقت بأيمانهم فبانت يمـيني

ولقد حطتُ ما استطعت بجهدي حفظ أرواحهم فما حفظوني

ليس بعد اليمين لذّة عيش يا حياتي بانت يميني فبيني

فقطع لسانه وحبس، وبقي في الحبس إلى أن مات سنة 328هـ. فدفن في دار السلطان ثمّ حمل فدفن في داره، ثمّ أخرج فدفن في مكان آخر.

ابن الراوندي (825–911م) : هو أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسن أو الحسين الراوندي، نسبة إلى راوند من قرى أصبهان. فيلسوف مجاهر بالإلحاد، له مناظرات ومجالس مع جماعة من علماء الكلام، وقد انفرد بمذاهب نقلوها عنه في كتبهم ومنها قوله بالحلول وتناسخ روح الإله في الأئمّة. ومن أعلام المعتزلة في القرن الثالث الهجري، إذ أيّد المعتزلة ووضع لهم الكتاب تلو الكتاب للدفاع عن آرائهم الكلاميّة والفلسفيّة، ولكنه انفصل عنهم فيما بعد فأخذ ينتقد آراءهم ومناهجهم ويردّ عليهم، ومن أشهر كتبه " فضيحة المعتزلة".و" التاج" و"الزمرّدة" و"نعت الحكمة" و"قضيب الذهب" و"الدامغ" مات الراوندي برحبة مالك بن طوق بين الرقة وبغداد، وقيل صلبه أحد السلاطين.

الرازي (864–925): هو محمد بن زكريّا أبوبكر، أعظم الأطبّاء وأكثرهم ابتكاراً، ومن أشهر الفلاسفة، من أهل الرّي ونسبته إليها، ولد وتعلّم بها وسافر إلى بغداد بعد الثلاثين، نظم الشعر من صغره ثمّ تخلى عن ذلك ونزع إلى الطب والفلسفة، تولّى رئاسة الأطبّاء في المستشفى العضدي ببغداد، وهو أوّل وأعظم علماء المدرسة الحديثة في الطب، وإلى جانب الطب عكف على دراسة الفلك والرياضيّات، من أهمّ كتبه كتاب "الحاوي في الطب". قيل عنه إنّه من زنادقة الإسلام الذين يؤمنون أنّ الله هو خالق الخير وإبليس خالق الشر، وقيل أنّه قال بأزليّة خمسة أشياء هم الله وإبليس

والزمن والخلاء(أي العدم) والهيولي (الروح) وقيل إنه جمع بين مذاهب الصابئة والدهريّة والفلاسفة والبراهمة الهنود.. لقد ثارت عليه حفيظة العلماء ورموه بالكفر واتهموه بالزندقة.

التوحيدي (ت 1023م) : هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي، فيلسوف معتزلي متصوّف، ولد في شيراز أونيسابور، وقضى معظم حياته في بغداد، كتب كتباً كثيرة أشهرها: (المقابسات)، و(الإمتاع والمؤانسة)، و(رسالة في علم الكتابة)، و(بصائر القدماء وسرائر الحكماء) و(الإشارات الإلهيّة والأنفاس الروحانيّة) و(رسالة في أخبار الصوفيّة) و(رياض العارفين) و(رسالة في الإمامة) و(الهوامل والشوامل)، وكان معتزليّا على مذهب الجاحظ مع ميل للتصوّف، وقد رمي بالزندقة، وقال عنه ابن الجوزي: زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي والتوحيدي والمعرّي.

ابن سينا (981-1037م) : هو الحسين بن عبدالله بن علي بن سينا، هو ألمع اسم بعد الرازي في تاريخ الطب العربي، وكان ابن سينا يتفوّق عليه في الفلسفة. ولد في (أفشنة) إحدى قرى بخارى، تلقى العلم واستظهر منذ حداثة سنّه القرآن الكريم وألمّ بعلوم الشريعة والدين، ثمّ أكبّ على دراسة الطبيعيّات والرياضيّات والمنطق وعلوم ما بعد الطبيعة، وأخذ فنّ الطب من عيسى بن يحيى. استهوته الفلسفة فأكبّ على دراستها وطالع كتاب أرسطو فانكشف له ما كان مستغلقا عليه منه، وأقام مذهبا فلسفيّا في

الوحدانيّة يقترب إلى حدّما من تركيب يؤلّف بين الإسلام وتعاليم أفلاطون وأرسطو. أشهر كتبه في الفلسفة(الشفاء) و(النجاة) وأشهر كتبه في الطب (القانون) الذي ترجم إلى اللاتينيّة في القرن الثاني عشر الميلادي وطبع ست عشرة مرّة في القرن الخامس عشر. كان يقول بنفس المبادئ التي نادى بها الفارابي من قبله بأنّ العالم قديم أزلي وغير مخلوق، وأنّ الله يعلم الكليّات لا الجزئيّات، ونفى أنّ الأجساد تقوم مع الأرواح في يوم القيامة. وقد كفّره الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) وأكّد نفس المعلومات ابن كثير في (البداية والنهاية)43/12 كما أكّد ابن عماد في (شذرات الذهب) 237/3 أنّ كتابه (الشفاء) اشتمل على فلسفة لا ينشرح لها قلب متديّن، وابن تيمية أكّد أنّه كان من الاسماعيليّة الباطنيّة الذين ليسوا من المسلمين أو اليهود أو النصارى.

عمر الخيّام (1048–1131): هو عمر بن إبراهيم الخيّام، غيّاث الدين أبو الفتح. من أهل نيسابور مولداً ووفاة، شاعر فيلسوف، وعالم مشهور من علماء الرياضيّات والفلك واللغة والفقه والتاريخ، صنّف الكتب ونظم الشعر بالفارسيّة والعربيّة، وترجع شهرته في الشرق والغرب إلى رباعيّاته. وفيها استخفاف ظاهر بالدنيا والآخرة وبالعقل والشريعة.

ابن عربي (1165–1241م) : هو محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي المرسي الأندلسي، محي الدين أبوبكر المعروف بابن عربي، ولد

في مدينة (مرسيه) بالأندلس، ولمّا شبّ انتقل إلى اشبيليّة ثمّ إلى قرطبة وفيها درس علوم القرآن والفقه والحديث ومال إلى المذهب الظاهري مذهب ابن حزم . اختلف الناس فيه، فمنهم من عدّه من الأتقياء والأولياء ومنهم من جعله من الملحدين المارقين، وهو من أصحاب المذهب القائل "بأنّ الله والطبيعة شيء واحد وبأنّ الكون المادّي والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات الإلهيّة" وقد صنّف ابن عربي كتباً كثيرة تجاوزت أربعمائة كتاب أهمّها (الفتوحات المكيّة) و(فصوص الحكمة ومفتاح السعادة) و(محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار) وغيرها. قصد ابن عربي من خلال كتاب فصوص الحكمة عرض حياة وتاريخ الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم في ضوء عقيدته في التوحيد، وقد جاء عمله مطابقا للكتاب المقدّس. وفي هذه الكتب شرح مذهبه الذي يقوم على وحدة الوجود وهي امتزاج اللاهوت بالناسوت، وهي الفكرة التي تصوّرها الحلاج من قبل ونادى بها.

ابن المقفّع– اتهم بالزندقة وقتل بعدها على يد سفيان بن معاوية حيث قام بصلبه وتقطيع لحمه قطعة قطعة وشيّها في النار أمام ناظريه حتى مات. البداية والنهاية 96/10.

علي عبدالرازق (1888–1966م) هو علي حسن أحمد عبدالرازق مؤلّف كتاب (الإسلام وأصول الحكم) ولد في قرية أبو جرج بمحافظة المينيا. حفظ القرآن في كتاب القرية، ثمّ ذهب إلى الأزهر حيث حصل على العالميّة، ثمّ

إلى جامعة أوكسفورد البريطانيّة، وعقب عودته عيّن قاضيا شرعيّا. أصدر عام 1925م كتاب (الإسلام وأصول الحكم) الذي يرى البعض أنّه يدعو إلى فصل الدين عن السياسة، بينما يرى البعض أنّه أثبت بالشرع وصحيح الدين عدم وجود دليل على شكل معيّن للدولة في الإسلام، بل ترك الله الحريّة للمسلمين في إقامة هيكل الدولة، على أن تلتزم بتحقيق المقاصد الكليّة للشريعة. والكتاب أثار ضجّة بسبب آرائه في موقف الإسلام من "الخلافة" حيث نشر الكتاب في نفس فترة سقوط الخلافة العثمانيّة وبداية الدولة الأتاتركيّة، بينما كان يتصارع ملوك العرب على لقب الخليفة. ردّ عليه عدد من علماء الأزهر من أهمهم الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر بكتاب "نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم" ثمّ سحب منه الأزهر شهادة العالميّة. ويعدّ كتاب الإسلام وأصول الحكم استكمالاً لمسيرة تحرير فكري بدأها الإمام محمد عبده في كتابه " الإسلام والنصرانيّة بين العلم والمدنيّة" وقاسم أمين والشيخ عبدالرحمن الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد. ويعدّ كتاب عبدالرازق أوّل دراسة شرعيّة تؤسّس للفكرة العلمانيّة داخل الوسط الإسلامي، وتقوم فكرته المركزيّة على تفسير الدين الإسلامي بصورة حديثة وأنّ الرسالة السماويّة لا تتضمّن سلطة الحكم، حيث كان النبيّ صلى الله عليه وسلم "رسولاً لدعوة دينيّة خالصة للدين لا تشوبها نزعة الملك ولا دعوة لدولة" وإنّما أحدث ذلك المسلمون من بعده، وكانت الحكومة

التي أقامها الصحابة من بعده دنيويّة ليست من أحكام الإسلام". شذوذ هذا الرأي أحدث ردّة فعل صارمة شديدة ضدّه، فأصدرت هيئة كبار العلماء في مصر بتوقيع 24 عالماً، بيانا ذكروا فيه أخطاء الكتاب البارزة، وحصروها في 7 مخالفات ظاهرة، ثم توالت الردود العلميّة، فكتب الشيخ محمد الخضر حسين : "نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم"، وكتب الطاهر بن عاشور: "نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم"، وأرّخ الدكتور محمد ضياء الدين الريس للتفاصيل المتعلقة بصدور الكتاب في رسالته " الإسلام والخلافة"ولعبدالرازق كتب أخرى، وقد حاضر طلبة الدكتوراه في جامعة القاهرة عشرين عاما في مصادر الفقه الإسلامي.

طه حسين (1889–1973م) هو طه بن حسين بن علي بن سلامة، أديب وناقد مصري، لقّب بعميد الأدب العربي، ويعتبر من أبرز الشخصيّات في الحركة العربيّة الأدبيّة الحديثة، ويراه البعض من أبرز دعاة التنوير في العالم العربي، ولقد أصيب بالرمد وعمره أربع سنوات فقد على إثره ضياء عينيه، فعاش كفيفاً، حصل على ما تيسّر له من ثقافة من الأزهر، وكان من أوائل المنتسبين للجامعة المصريّة فدرس العلوم العصريّة والحضارة الإسلاميّة والتاريخ والجغرافيا وعدداً من اللغات الشرقيّة كالحبشيّة والعبريّة والسيريانيّة، وظلّ يتردّد خلال تلك الحقبة على حضور دروس الأزهر والمشاركة في ندواته اللغويّة والدينيّة. نال شهادة الدكتوراه عام 1914م

وموضوع أطروحته (ذكرى أبي العلاء) فأثار ضجّة في الأوساط الدينيّة وفي ندوة البرلمان المصري، إذ اتهمه أحد أعضاء البرلمان بالمروق والزندقة والخروج على مبادئ الدين الحنيف. وفي العام نفسه أوفدته الجامعة المصريّة إلى مونبيليه بفرنسا، لمتابعة التخصّص والاستزادة من فروع المعرفة والعلوم العصريّة، فدرس الفرنسيّة وآدابها، وعلم النفس والتاريخ الحديث، وفي العاصمة باريس درس مختلف الاتجاهات العلميّة في علم الاجتماع والتاريخ اليوناني والروماني والتاريخ الحديث، وأعدّ أطروحة ثانية بعنوان " الفلسفة الاجتماعيّة عند ابن خلدون" كما أنجز في 1918م دبلوم الدراسات العليا في القانون الروماني، وتزوّج من سوزان بريسو الفرنسيّة السويسريّة التي ساعدته على الاطلاع بالفرنسية واللاتينيّة. في عام 1926 ألّف كتابه المثير للجدل " في الشعر الجاهلي" وعمل فيه بمبدأ ديكارت وخلص في استنتاجاته وتحليلاته أنّ الشعر الجاهلي منحول، وأنّه كتب بعد الإسلام ونسب للشعراء الجاهليّين. قاضى عدد من علماء الأزهر طه حسين إلا أنّ المحكمة برّأته لعدم ثبوت أنّ رأيه قصد به الإساءة المتعمّدة للدين أوالقرآن، فعدّل اسم كتابه إلى "في الأدب الجاهلي" وحذف منه المقاطع الأربعة التي أخذت عليه. وقد حاز مناصب وجوائز شتّى وألفّ أكثر من عشرين كتابا. أمّا البنية المجتمعيّة فقد وقفت له بالمرصاد بل ذهب بعضهم بتلخيص أهم انحرافاته ومنهم أنور الجندي الذي أورد هذه الانحرافات في

نقاط منها : قوله بالتناقض بين نصوص الكتب الدينيّة وبما وصل إليه العلم وقوله (إنّ الدين لم ينزل من السماء وإنّما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها) وهي نظريّة (دوركايم) من المدرسة الفرنسيّة. وكذلك إثارة الشبهات حول ما سمّاه القرآن المكي والقرآن المدني. كما أنّه عمل على إعادة طبع (رسائل إخوان الصفا) وتقديمها بمقدمة ضخمة في محاولة لإحياء الفكر الباطني المجوسي. وهناك أكثر من عشرين انحرافاً رصدهم البعض لإلصاق تهمة الزندقة والإلحاد به حتى بعد وفاته.

نصر حامد أبوزيد (1943–2010) أكاديمي مصري، وباحث متخصّص في الدراسات الإسلاميّة ومتخصّص في فقه اللغة العربية والعلوم الإنسانيّة، حصل على ليسانس اللغة العربية وآدابها بجامعة القاهرة 1972م بتقدير ممتاز، ثمّ ماجستير من نفس القسم والكليّة في الدراسات الإسلاميّة عام 1976م بتقدير ممتاز كذلك، ثمّ دكتوراه من نفس القسم والكلية في الدراسات الإسلاميّة عام 1979 وبتقدير مرتبة الشرف الأولى. نال جائزة عبدالعزيز الأهواني للعلوم الإنسانيّة من جامعة القاهرة 1982م ووسام الاستحقاق الثقافي من رئيس جمهورية تونس 1993م وجائزة اتحاد الكتاب الأردني لحقوق الإنسان 1996م ، وكرسي كليفرينخا للدراسات الإنسانيّة – كرسي في القانون والمسؤولية وحريّة الرأي والعقيدة بجامعة ليدن بدءاً من سبتمبر 2000م، وميدالية "حريّة العبادة" مؤسسة إليانور وتيودور روزفلت 2002م،

وكرسي ابن رشد لدراسة الإسلام والإنسانيّات، جامعة الدراسات الإنسانيّة في أوترخت، هولندا 2002م. وعندما قدّم أبحاثه للحصول على درجة أستاذ تكوّنت لجنة من أساتذة جامعة القاهرة بينهم د. عبدالصبور شاهين الذي اتهم في تقريره د. نصر "بالكفر" وحدثت القضيّة المعروفة التي انتهت بترك نصر الوطن إلى المنفى منذ 1995 بعد أن حصل على درجة أستاذ بأسابيع. طالب أبوزيد بالتحرّر من سلطة النصوص وأوّلها القرآن الكريم الذي قال عنه: القرآن هو النص الأوّل والمركزي في الثقافة، لقد صار القرآن هو نصّ بألف ولام العهد، وهو النص المهيمن والمسيطر في الثقافة، فالنصّ نفسه –القرآن – يؤسّس ذاته ديناً وتراثاً في الوقت نفسه، وقال مطالبا بالتحرّر من هيمنة القرآن " وقد آن أوان المراجعة والانتقال إلى مرحلة التحرّر لا من سلطة النصوص وحدها، بل من كلّ سلطة تعوق مسيرة الإنسان في عالمنا، علينا أن نقوم بهذا الآن وفوراً قبل أن يجرفنا الطوفان" اتّهم بسبب أبحاثه العلميّة بالارتداد والإلحاد، ونظراً لعدم توفّر وسائل قانونيّة في مصر للمقاضاة بتهمة الارتداد عمل خصومه على الاستفادة من أوضاع محكمة الأحوال الشخصيّة التي يطبّق فيها فقه الإمام أبوحنيفة، والذي وجدوا فيه مبدأ يسمّى "الحسبة" طالبوا على أساسه من المحكمة بالتفريق بين نصر وزوجته قسراً على أساس " أنه لا يجوز للمرأة المسلمة الزواج من غير المسلم" فحياة الزوجين باتت في خطر، وفي نهاية المطاف غادر نصر

حامد أبوزيد وزوجته ابتهال يونس الأستاذة في الأدب الفرنسي، القاهرة نحو المنفى إلى هولندا، ليقيما هناك حيث عمل نصر أبوزيد أستاذا للدراسات الإسلاميّة بجامعة لايدن. من كتبه (الاتجاه العقلي في التفسير) رسالة الماجستير و(فلسفة التأويل) رسالة الدكتوراه و(مفهوم النص – دراسة في علوم القرآن) و (إشكالية القراءة وآليات التأويل) و (نقد الخطاب الديني) و (النص السلطة الحقيقة) و (الخطاب والتأويل) و (التفكير في زمن التكفير) و(هكذا تكلّم ابن عربي).و(الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجيّة الوسطيّة).

محمود محمد طه (1909–1985) مفكر ومؤلف وسياسي سوداني أعلن مجموعة من الأفكار الدينيّة والسياسية سمّى مجموعها بالفكرة الجمهوريّة، أخذها عليه كثير من العلماء مختلفي المذاهب ورماه بعضهم بالردّة عن الإسلام وحوكم بها مرّتين أعدم في أخراها في يناير 1985. ففي 18 نوفمبر 1968 حوكم محمود بتهمة الردّة أمام محكمة الاستئناف العليا الشرعيّة. رفض الامتثال لأمر الحضور للمحكمة التي حكمت عليه غيابيا بالردّة عن الإسلام وقد نصّ الحكم على "أنّه مرتد عن الإسلام وأمرناه بالتوبة من جميع الأقوال والأفعال التي أدّت إلى ردّته"وفي 7 يناير 1985 قدّم محمود أمام المحكمة الجنائية رقم 4 أمدرمان أمام القاضي حسن المهلاوي فأدانته المحكمة هو ورفاقه الأربعة وصدر الحكم بالإعدام ضدّه وضدّ الجمهوريّين الأربعة بالإعدام شنقاً حتى الموت، على أن يكون لهم

الحقّ في التوبة والرجوع عن دعوتهم إلى ما قبل تنفيذ الحكم. وفي محكمة الاستئناف الجنائيّة الخرطوم نظرت القضيّة برئاسة القاضي المكاشفي طه الكباشي وعضويّة محمد محجوب حاج نور ومحمد سر الختم ماجد.. وقد جاء في حيثيات المحكمة : أنّها أكّدت على أنّ المتهمين يدّعون"فهماً جديداً للإسلام، وعلى اعترافاتهم بمسؤوليتهم عن المنشور ومطالبتهم بإلغاء قوانين سبتمبر، وأيّدت المحكمة قرار المحكمة الجنائيّة، كما ذكرت آراء عدد من علماء الإسلام في السودان ومصر والسعوديّة وعضّدت قرارها بآرائهم وإن لم تسمّهم. وأكدت المحكمة أن محمود "مرتد عن الدين ليس فقط ردّة فكريّة فرديّة، وإنّما مرتد بالقول والفعل والسلوك داعية إلى الكفر معارض لتحكيم كتاب الله ليس فقط في السودان بل في سائر أنحاء الأرض" ثمّ تساءلت " فأيّ ضلال وأيّ كفر وأيّ حرب للدين أكبر من هذه؟" وأمّنت على قرار المحكمة الأولى بالحكم على المتهمين الخمسة بالإعدام شنقا حتى الموت. ومع أنّه تجاوز السبعين من العمر فقد قررت المحكمة أنّ المادة 247 من قانون الإجراءات الجنائيّة التي توقف تنفيذ عقوبة الإعدام على المسنّ الذي جاوز السبعين من عمره، لا تنطبق على الحدود. فأيّدت بذلك الإدانة والعقوبة بالإعدام شنقا حتى الموت حدّاً وتعزيراً على المحكوم عليه محمود محمد طه على أن لا يُصلّى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين، وتكون أمواله فيئا للمسلمين بعد قضاء دينه وما عليه من حقوق. واعتبار طائفة

الجمهوريين طائفة كافرة ومرتدّة، وتصادر كلّ كتب ومطبوعات محمود محمد طه وكتب الجمهوريين من جميع المكتبات بغرض إبادتها مع منع تداولها وطبعها في كافّة المطابع. وقد أيّد الرئيس جعفر نميري الحكم ونفّذ في صباح الجمعة 18 يناير 1985. يذكر أنّه عام 1986 تمت إعادة فتح القضيّة وتبيّن للمحكمة التي نظرت إلى ذلك أنّ المحكمة التي قامت بذلك انتهجت نهجاً غير مألوف، وأسلوباً يغلب عليه التحامل، وأنّ محكمة الاستئناف التي أصدرت الحكم انحدرت إلى درك من الإجراءات المستحدثة انتهت بها في نهاية الأمر إلى إصدار حكم جديد لا صلة له بالحكم الذي عرض عليها للتأييد، كما اشتطت في ممارسة سلطتها. وقرّرت المحكمة ما يلي: إعلان بطلان الحكم الصادر في حق المواطنين. محمود محمد طه والثاني . ووقّع على ذلك محمد ميرغني مبروك، رئيس القضاء ورئيس الدائرة الدستوريّة وكلّ من زكي عبدالرحمن وفاروق أحمد إبراهيم ومحمد حمزة الصديق قضاة المحكمة العليا وأعضاء الدائرة الدستوريّة. ومن مؤلفاته (الرسالة الثانية من الإسلام) و(رسالة الصلاة) و(طريق محمد) و(القرآن ومصطفى محمود والفهم العصري) و(الدستور الإسلامي نعم ولا) و (الإسلام برسالته الأولى لا يصلح لإنسانيّة القرن العشرين) ومجمل مؤلفاته 29 كتابا.

وموضوع "الاتهام بالإلحاد والمروق من العقيدة السائدة عمليّة قديمة متكرّرة في التاريخ فكما تعرّضت عمليّة تعدّد المدارس الفكريّة أو توحيدها في العصور السودانيّة الفرعونيّة القديمة لتهم الزيغ والضلال فكذلك التبس الحال واحتدّ واصطدم حين أعدمت ثورة أثينا الديمقراطيّة العالم التكنوقراطي سقراط، وحين أتّهم الأحناف في جزيرة العرب بالعبث والمروق وبالإنحلال لقاء كفرهم بآلهة وعقائد الآباء والأجداد وحنفهم تفكيرهم بعيداً عنها، وكذلك حين جاءت الأديان الحديثة كلّها اتهمت بالإلحاد بآلهة الآباء والأجداد والتآمر ضدّ استقرار وسلامة المجتمع.وسنتابع كيف أنّ البنية المجتمعيّة السائدة قد عارضت وعذّبت أنبياء ورسل، وكيف جاهد هؤلاء الرسل لإبلاغ رسالاتهم، فقد اتهموا بالجنون والمروق والسحر وعذّبوا ومنهم من قتل ذلك أنّه جاء حاملاً مشروعا متمرّدا على ما هو سائد لديهم ومن بنية وعي خلاقة تتعارض مع بنية الوعي التناسلي السائدة والحاكمة والمتحكّمة في المجتمع. ولكن انتصار الأديان لم يوقف عمليّة التهم بالإلحاد وعواقبها، فقد دأب كثير من أهل التديّن على اتهام أهل التفكير بالإلحاد." فالاتهام موجّه من بنية سائدة ضدّ بنية أو رؤية جديدة حاملة لمشروع جديد. وقد يكون الاتهام داخل البنية الواحدة من منطلق عصبيّة لموقف عرقي أو سياسي ويأتي باسم الدين، وقد ذكر د.جميل حمداوي في موقعه عن أسباب التكفير بأنّ " ثمّة مجموعة من الأسباب والدواعي التي تدفع الإنسان إلى

تكفير إنسان آخر منها: عدم فهم الدين فهماً حقيقيّاً بمراعاة مقاصده القريبة والبعيدة، أو التوقّف عند ظاهر النص دون استنطاق دلالاته العميقة علاوة على الاختلافات السياسيّة بين الفرق والجماعات الإسلاميّة، وتناقض مصالحها وتضارب أهوائها الأيديولوجيّة، وفهم الأمور الدينيّة فهماً سطحيّا دون التعمّق في حيثياتها الحقيقيّة والغلوّ في التطرّف في الدين، وعدم التسامح والتعايش مع الشعوب المخالفة للمسلمين، والإسراف في التحريم، والتباس المفاهيم، والاشتغال بالقضايا الجانبيّة بدلاً من الاهتمام بالقضايا الكبرى، والتسرّع في الأحكام الدينيّة، وعدم التروّي في ذلك، وضعف البصيرة بالدين ناهيك عن الجهل والابتداع واتباع الهوى ومنع حريّة التديّن، والغلوّ في فهم معنى الجهاد" كما أورد في سياق التكفير قوله " من المعروف أنّ ظاهرة التكفير قديمة في تاريخنا الإسلامي، فقد بدأت بتكفير المشركين والمنافقين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتكفير مانعي الزكاة والمرتدّين في عهد أبي بكر الصدّيق، وتنامت هذه الظاهرة مع ظهور الفرق الكلاميّة سيّما فرقة الخوارج التي كانت تكفّر الناس بعد رفضها لمبدأ التحكيم حين الانتهاء من موقعة صفّين، فخرج هؤلاء عن علي بن أبي طالب، وأسّسوا فرقة خاصّة بهم تسمّى الحروريّة، وكان أميرهم هو عبدالله بن وهب الراسي، بيد أنّهم انقسموا إلى عشرين فرقة، وقد كان تكفيرهم ذا طابع سياسي أكثر ممّا كان طابعاً دينيّاً، لأنّه يتعلّق بقضيّة الإمامة أو الخلافة،

وقد كفّروا عثمان بن عفان وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري ومعاوية بن أبي سفيان وكلّ من رضي بالتحكيم وصوّب الحكمين أو أحدهما، وأوجب الخوارج الخروج على السلطان الجائر وقتاله. وعلى هذا فإنّ آراءهم هذه إنّما تجعل منهم فرقة سياسيّة ولكنهم أضافوا إليها نظرات حول حقيقة الإيمان وشروطه".

ومن قائمة الذين شملتهم دعاوى التمنطق والزندقة والإلحاد في الإسلام إضافة إلى ما تمّ عرضه سابقا:

- الأعصمي(740- 828) فلكي رائد الدراسة المنظومة للحيوان والبيطرة.
- الخوارزمي (770–840) جداول الخوارزميات، فلكي، جغرافي
- ثابت بن قرّة (836–901) فلكي، ميكانيكي، هندسي، علم وظائف أعضاء الجسم.
- عبّاس بن فرناس (ت888) الطيران وبناء الطائرات، الاستنبات، صناعة البلور.
- على بن ربعان الطبري(838–870) وهو غير الطبري المؤرخ، الرياضيّات وتناسق الخط، والأدب.
- الباطني (858–929) فلكي ورياضي ومنجّم
- الفرغاني، عاش حول سنة(860) فلكي ومهندس.

- المسعودي (ت 957) الجغرافيا والتاريخ.
- الصوفي (903–986) الفلك.
- أبوالقاسم الزهراوي (936–1013) طبيب، وأبوالجراحة الحديثة.
- البوزجاني (940– 997) فلكي وهندسي، عالم في موضوع تأثير حركة الشمس والنجوم على حركة عوامل المناخ وتفاعل كائنات الأرض.
- ابن الهيثم (965–1040) أستاذ في الرياضيّات وفي البصريّات.
- البيروني (973–1048) فلكي، حساب المسافات حسب حجم الأرض.
- الزرقيلي (1028–1087) متفرد في الاصطرلاب، وأستاذ في الفلك.
- ابن زهير (1091–1161) طبيب وجرّاح.
- الإدريسي (1099–1166) فيلسوف ، أوّل واضع خريطة حديثة للعالم كلّه، وقد وضّح فيها منطقة سمّاها "الأراضي المجهولة" تسمّى حاضراً أمريكا.
- ابن طفيل (1110–1185) الشعر والأدب والطب والفلسفة.
- البطرجي (ت1024) أستاذ في الفلك.
- ابن البيطار (ت1248) عَلَم في الصيدلة والباطنيّة.

- نصرالدين الطوسي (1201–1274) فلكي ومعلّم، أسّس مراصد فلكيّة كبرى،وبتعليمه أدخل أبناء زعماء المغول إلى الإسلام.
- جلال الدين الرومي (1207–1273) كعمر الخيّام أشرقت به الرياضيّات العقليّة والوجدانيّة.
- ابن النفيس (1213–1288) أستاذ في علم الأعضاء الباطنيّة.

الفصل الثاني: **النص الديني والخطاب المركّب**

النص الديني والخطاب المركّب

مخاطبة النص الديني لبنى الوعي المختلفة:

النص الديني دائماً يحمل في طيّاته أبعاداً ومرامي ودلالات وخطابات متعدّدة تخاطب بنى الوعي الثلاث لدى الإنسان، ويجد كلّ فرد فيه مبتغاه بل يجد ما يسند ويدعم بنيته حسب فهم وتفسير البنية لهذا الخطاب، ولا تختلف البُنى في استيعاب القيم ومحاولة احتوائها ولكنها تجد معاناة في الالتزام أو العمل بها لأنّها لا تنسجم وقدراتها على هذا الالتزام.

فالبنيتان التناسليّة و البرجوازيّة كلّ منهما تتفق مع بنية الوعي الخلاّق مثلاً في قيم الصدق والالتزام بالعهد والأمانة وحبّ الخير والغير، ولكنها حين التطبيق يصعب عليها أن تكون صادقة مع نفسها ناهيك عن صدقها مع الآخر، كما تجد معاناة في الالتزام بالعهد والوعد الذي دائماً ما تخلفه حسب مصلحتها، وتتغنى بالأمانة ولكنّها تعاني في الالتزام بها حين ينتفي عنها الصدق، وخيرُها محصور في ذاتها وأسرتها وأقاربها، كذلك حبّها لذاتها ولأسرتها وعصبيّتها لعشيرتها. ذلك لأنّ البنية لها وظيفة واحدة هي توفير البشر كمّيا بكثرة الإنجاب وتحبّ أبناءها حبّ امتلاك وقصور، أي الحب الغريزي الذي نجده عند بقية الكائنات الحيّة، في حين أنّ الخطاب الديني جاء ليخرجها من دائرة البشريّة بتهذيب الغريزة ونقلها إلى دائرة الإنسانيّة.

وبحكم علم الله تعالى لهذه البُنى القاصرة والمغلقة فإنّه حين أنزل كتابه الكريم خاطب البُنى الثلاث، فجاء الخطاب مركّبا، كلّ بنية وعي تجد نفسها فيه وتسعى للالتزام بتوجيهاته، وحين يصعب عليها تلجأ للتأويل بما ينسجم ودرجة وعيها، كما حاول النص القرآني توجيه كلّ بنية على حدة وطالبها بما تستطيع القيام به من خلال الارتقاء بها بدلاً عن التدنّي إلى ما يمكن أن يجعلها أكثر وعياً، ولكنّها في الغالب توظّف النصّ لصالح البنية الراسخة في المجتمع والسابقة للخطاب والمتجذّرة لدى أفراده.

يقول تبارك وتعالى ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴿٤٦﴾ ﴾ فيصف البنيتين المغلقتين بأنهما زينة الحياة الدنيا، ولكن عليهما أن يعلما أنّ ﴿ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ 46 الكهف، ثمّ يعود ليحجّم دور البنيتين القاصرتين ليس بتوجيههما بأنّ الباقيات الصالحات هي خير وهي التي تستحقّ الثواب بل إن الحياة الدنيا ليست سوى لعب ولهو ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ 32 الأنعام. ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ ﴾ 26 الرعد. ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ 64 العنكبوت ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ 7 الروم ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾ 33 لقمان. ويؤكّد الخطاب القرآني لمن يحمل وعي القصور من بنية

تناسليّة أو برجوازيّة أنّ ما هو مستقرّ في وعيهم ما هو إلاّ فتنة تحجب عنهم ما هو عند الله من خير هو الأبقى ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ 28 الأنفال.

كما أنّ عصبيّة البنى القاصرة لرأيها دون مراجعة أو إعمال فكر جسّدها سبحانه في ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ 11 البقرة.

وقد خاطب الله سبحانه وتعالى بنيتي وعي القصور المادّية والتناسليّة محذّراً ومنذراً بقوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾ 10 آل عمران. وفي آل عمران كذلك 116 ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

كذلك أوضح لهاتين البنيتين أن لا تسحرهم هذه الزينة وأن يعوا أنّها قاصرة على الدنيا ومتاعها ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ 14 آل عمران.

وفي آل عمران 91 ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

وخصّ الله سبحانه البنية البرجوازيّة بالخطاب في قوله ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧ ﴾) 37 النساء.

ويدفع النص القرآني البنية البرجوازيّة ويحثّها على الإنفاق **(لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون)** 92 آل عمران. وفي سورة النساء 38 ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨ ﴾ **وفي سورة التوبة** 24 ينبّه المولى تبارك وتعالى كلّ من يحمل وعي بنيتي القصور بأن يعوا ما هم فيه من انغلاق لن ينفعهم عند الله إن لم يبذلوا جهدهم وجهادهم في فعل الخير في سبيل الله، فسبحانه وتعالى يعلم قصور هاتين البنيتين وينحصر حبّهم في الذات والأسرة وربّما العشيرة إضافة إلى حب البنية البرجوازيّة للمال وانحصار همّهم في جمعه بكلّ الوسائل﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤ ﴾

وفي سورة التوبة 34-35 يبشّر البنية البرجوازيّة التي تكتنز ولا تنفق **بالعذاب** ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا

يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥ ﴾ **وفي سورة التوبة 55 يعرّى كلا البنيتين القاصرتين** ﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥ **وفي سورة التوبة 69** ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩ ﴾ **وفي التوبة كذلك 85** ﴿ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٨٥ ﴾

ويخاطب النصّ القرآني البنيتين القاصرتين حتى لا ينخدع حاملوها **في سورة المؤمنون 55-56** **﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦ ﴾**

ويوجّه سبحانه هذه البنى في سورة القصص 77 ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ ﴾ ويردّ سبحانه وتعالى على البنيتين المغلقتين التناسليّة والبرجوازيّة ﴿ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ

أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ 35- 37 سبأ، وللذين يتبعون زينة الحياة الدنيا يقول تبارك وتعالى في سورة الشورى 20 ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ ويرغّب الخطاب القرآني في العمل من أجل الدار الآخرة بفعل الخيرات ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ 36 الشورى. مؤكّدا لهم أنّ الحياة الدنيا قصيرة ولا تعدو أن تكون لعباً ولهواً ﴿ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴿٣٦﴾ ﴾ 36 محمد . ويؤكّد هذه الحقيقة في سورة الحديد 20 ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ ويواصل الخطاب القرآني تنبيه كلّ من تسيطر عليه بنية العقل التناسلي أو البرجوازي بأنّه ﴿ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ 17 المجادلة، وفي سورة الممتحنة 3 يؤكد للبنية التناسلية التي تهتم في انغلاقها بنفسها وأبنائها وأقربائها وعلى أحسن تقدير عشيرتها ﴿ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣﴾ ﴾ ويخاطب البنيتين حتى وإن اعتنقوا الإسلام وآمنوا لكنّ البنية مسيطرة عليهم، في سورة

المنافقون 9 ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ ﴾ وفي سورة التغابن 15 ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ ﴾ وفي سورة نوح 21 ﴿ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١ ﴾ وفي سورة المدّثر 11–17 ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾ (ويؤكّد في سورة الأعلى 16–17 ﴿ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ ﴾ كما يتوعّدهم بالويل في سورة الهُمزة 1–4 ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ٢ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ٣ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤ ﴾ وعن أبي لهب في سورة المسد 1–2 ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ ﴾

المبحث الأوّل

الخطاب للعقل: (العلامات ودورها في نشأة الأديان)

بنية العقل التناسلي على امتداد الحضارات العشرين الماضية بل ومنذ بدء التاريخ كانت متأثّرة بفكرة الدين، ليس بدافع المعرفة بل من خلال ملاحظات البشر لما يحيط بهم والحيرة التي تملّكتهم أمام الأسرار التي لا يراها بل ولا يدرك كنهها ممّا دفعه إلى التديّن ليدفع عن نفسه الضرّ أو ليجلب لها الخير " فقد رأى قريبه يموت ولا يعلم ما حلّ به، والعاصفة تهبّ وتقلع الشجرة التي كان يأوي تحت أغصانها، والأمطار تغمر الكهف الذي التجأ إليه، والصاعقة تبرق فتحرق كوخه... وامتدّ به الأمر فوصل بين مظاهر الطبيعة المخيفة كالرعد والصاعقة والفيضان والحريق وبين الميّت، وراح بعد ذلك يتقرّب إلى هذه المظاهر ليتّقي شرّها واستنجد بالميّت ليأمن بطش روحه"[1]

وراحت بنية المجتمعات التناسليّة التي تؤمن بالمرجعيّات السببيّة الغيبيّة تؤلّه مظاهر الطبيعة كالشمس والنار والربيع وكلّ ما خافه واضطرب منه، كالظلام والعاصفة والرعد والصاعقة، وهكذا اتخذ من هذه المظاهر آلهة خير وآلهة شر " ثمّ أمسى وثنيّا من في اعتقاده يعبد الأحجار والأشجار، ولمّا تدرّج في سلّم الرّقي وسما إدراكه وفطن إلى أنّه لا يجوز أن يكون للأحجار والأشجار الحول والطول أعرض عنها وعظّم الروح التي توهّمها فيها، وزاد من شأنها ونسب إليها قدرة التصرّف في الكائنات خيراً وشرّاً، ثمّ صار مشتركاً يعبد آلهة متعدّدة يتقرّب إليها بالصلوات ويتّقي شرّها

[1] طه الهاشمي ، تاريخ الأديان وفلسفتها، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، 1963، ص 12.

بالأضاحي والنذر، بيد أنّ البشر لم يستمرّ على هذا الاعتقاد طويلاً، بل لاحظ النظام الباهر الذي تسير عليه الأكوان، وأخذ يتساءل عمّا إذا كان يجوز لهذه الآلهة المتعدّدة أن تتصرّف في الكون بذلك النظام دون أن تكون خاضعة إلى سلطة أعلى منها مقاماً وأعظم شأنا، وكان يرى في نظام الحكم الذي يخضع إليه مثلاً لذلك. وهكذا وضع إلها أجلّ أعلاه فوق آلهته المتعدّدين تعمل بأوامره، وتطوّر هذا الاعتقاد عند البعض فرأى أنّه من الضلال أن يحتاج ذلك الإله إلى مساعدة الآلهة الأخرى فأجلّه ونزّهه عن الشركاء واعتقد بإله واحد أحد."[1]

ويرى طه الهاشمي أنّ البشر تدرّج (في سلّم الاعتقاد من معتقد ساذج إلى معتقد تطوّر شيئاً فشيئا من الوثنيّة والشرك فانتهى بالتوحيد، وكان البشر في طريق اعتقاده هذا مدفوعاً دوماً إلى معرفة القوّة الفاعلة المدبّرة للكون، وإلى الوقوف على السرّ الغامض، سرّ المبدأ والمعاد، من أين وإلى أين؟... فحمل التمائم ووضع الطقوس وظلّ يتخبّط في سيره لا يستقرّ على عقيدة حتّى تتهافت أمامه مسرعة أو متباطئة إلى أن جاء الأنبياء والمرسلون فأنقذوه من الشكّ وهدوه السبيل. ووجد في الكتب المنزّلة مفتاح السرّ المكنون الذي ظلّ في البحث عنه قرونا. وآمن بخالق الكون وصار يتأهّب للمعاد. ولم يكن البشر في طريقه إلى معرفة الحقيقة مطمئنّ البال هادئ النفس إلاّ

[1] المرجع السابق ص13.

بعد إيمانه بتعاليم السحرة واعتقاده بطقوس الكهّان، واستسلامه أخيراً إلى آيات الأنبياء "[1]

لذا كان الله سبحانه وتعالى يدرك أهميّة الإشارة إلى هذه العلامات والآيات الكونيّة ليتفكّر فيها البشر ويدركون يقينا أنّ مسيّرها ومدبّرها وخالقها هو الله وحده لا شريك له، فجاءت العديد من آيات القرآن الكريم مشيرة إلى ذلك ومخاطبة بُنى هذه المجتمعات التي هي أصلا بحاجة لمعرفة مبدأ الخلق ومآله. خاطب الله سبحانه وتعالى العقل الإنساني ليس باللغة فقط بل بالعلامات التي تشكّل اللغة جزءاً منها فالآيات الكونيّة هي أكثر إقناعا وتعقّلا لكلّ البُنى ففي سورة الأنعام 95- 99 ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٩٥ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩ ﴾. فانبثاق الحبّ من النوى من وراءه؟، وخروج الحيّ من الميّت أو الميّت من الحي؟،

[1] المرجع السابق نفسه.

ومن هو فالق الإصباح؟، ومن جعل الليل هادئاً سكنا للأجساد؟، ومن جعل الشمس والقمر آيتين عظيمتين ترسل الشمس دفأها فتبث الحياة، والقمر ضوءه، ويعينان على حساب التوقيت والزمن؟، وكذا النجوم لتهدي في ظلمات البرّ والبحر؟، وكذا تناسل البشر من نفس واحدة ؟، ونزول المطر؟، ونموّ النبات متعدّدا متنوّعا؟، كلّها آيات لمن يعلم ويفقه ويؤمن، علامات بارزة واضحة تعطيكم إشارة جليّة للتوحيد بالله الأحد.

كما قصّ علينا كيف أنّ إبراهيم عليه السّلام شدّته هذه العلامات وهو يبحث عن ربّه ليعبده فتنقّل بينها كآيات كونيّة كبرى ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الأنعام 76- 79. وعدد كبير من الآيات يستحث العقل الإنساني ببنى وعيه الثلاث للتأمّل في العلامات الكونيّة، وسنورد في الملحق الأوّل من هذه الدراسة جميع الآيات التي أبرزت العلامات الكونيّة وسيلة لاستيعاب البشر هذه الجزئيّات والتفكّر فيها والتدبّر في هذه الآيات الكونيّة للإيمان بخالق هذا الكون والتوحيد به تعالى.

المبحث الثاني

الأمثال وأثرها في مخاطبة بُنى الوعي:

للمثل في اللغة معانٍ مختلفة كالنظير والصفة والعبرة وما يجعل مثالاً لغيره يُحذا عليه إلى غير ذلك من المعاني[1]. والمثل يدلّ على مناظرة الشيء للشيء، والمثل والمثال بمعنى واحد. وفي الاصطلاح : قسم من الحكم يرد في واقعة لمناسبة اقتضت وروده فيها، وتسميته بالمثال لأجل المناسبة والمشابهة. يقول ابن السكيت (ت244هـ): المثلُ لفظ يخالف لفظ المضروب له ويوافق معناه ذلك اللفظ.[2]

وتضرب الأمثال لتبرز المعاني في صور حسيّة لتقرّبها إلى الأذهان في صورة قريبة لتزيد المعاني دقّة ووضوحاً، والمجتمعات ذات البنية التناسليّة تنحو نحو التجسيد دائماً وتُغرم بالتمثّل والتشبيه، وهي دائماً أبلغ في الوعظ وأوقع في النفس وأقوى في الزجر وأقدر على الإقناع وأدعى إلى التفكير والاعتبار. وقد قال إبراهيم النظّام (ت 143هـ): يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية. فهو نهاية البلاغة، وقال آخرون: سمّيت الحكم القائم صدقها في العقول أمثالاً، لانتصاب صورها في العقول، مشتقّة من المثول الذي

[1] لسان العرب 22/13 مادة مثل.
[2] مجمع الأمثال: 6/1

هو الانتصاب.[1] وقال عبدالقاهر الجرجاني (ت471هـ) : اعلم إنّ ممّا اتفق العقلاء عليه أنّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو أبرزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصليّة إلى صورته كساها أبّهة، وأكسبها منقبة ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها. فإن كان ذمّا كان مسّه أوجع ، وميسمه ألذع، ووقعه أشدّ وحدّه أحد. وإن كان حجاجاً، كان برهانه أنور وسلطانه أقهر وبيانه أبهر، وإن كان افتخارا كان شأوه أمد وشرفه أجد ولسانه ألد، وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب وللقلوب أخلب، وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر وأدعى إلى الفكر وأبلغ في التنبيه والزجر.[2]

والأمثال حكمة العرب منذ القديم في الإسلام وما قبل الإسلام، كما أنّها ليست من خصائص العرب دون غيرهم بل نجد أنّ لكلّ قوم أمثال وحكم يقربون بها مقاصدهم إلى أفهام من يخاطبون. وللقيم الفنيّة وأبعاد الدلالة فقد اهتمّ عدد من الدارسين بالأمثال في القرآن الكريم، فألّفوا الكتب حولها لإبراز دورها البلاغي والدلالي وأثرها في إقناع المخاطب به ومنها:

- "أمثال القرآن" للجنيد بن محمد القواريري (ت298هـ).

[1] المصدر السابق نفسه.
[2] أسرار البلاغة : 101-102.

- " أمثال القرآن" لإبراهيم بن محمد بن عرفة بن مغيرة المعروف بنفطويه (ت323هـ).
- "أمثال القرآن" لأبي علي محمد بن أحمد بن الجنيد الإسكافي (ت381هـ).
- "أمثال القرآن" للشيخ أبي عبد الرحمن محمد بن حسين السلمي النيسابوري (ت412هـ).
- "الأمثال القرآنيّة" للإمام أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الشافعي (ت450هـ).
- "أمثال القرآن" للشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزيّة (ت754هـ).
- "الأمثال القرآنيّة" لعبدالرحمن حسن حنبكة الميداني.
- "أمثال القرآن" للمولى أحمد بن عبدالله الكوزكناني التبريزي (ت1327هـ).
- "أمثال القرآن" للدكتور محمود بن شريف.
- "الأمثال في القرآن الكريم" للدكتور محمد جابر الفياضي.
- "الصور الفنيّة في المثل القرآني" للدكتور محمد حسين علي الصغير.

فمن أمثال سليمان التي وردت في الكتاب المقدّس سعياً لإقناع بُنى الوعي الكثير ومنها:

أمثال سليمان 23: 9-29 (في أذني جاهل لا تتكلّم لأنّه يحتقر حكمة كلامك * لا تنقل التُخمَ القديم ولا تدخل حقول الأيتام * لأنّ وليّهم قويّ هو يقيم دعواهم عليك * وجّه قلبك إلى الأدب وأذنيك إلى كلمات المعرفة * لا يحسدنّ قلبك الخاطئين، بل كن في مخافة الربّ اليوم كلّه * لأنّه لابدّ من ثواب ورجاؤك لا يخيب * لا تكن بين شرّيبي الخمر بين المتلفين أجسادهم * لأنّ السكّير والمسرف يفتقران، والنوم يكسو الخرق * اسمع لأبيك الذي ولدك ولا تحتقر أمّك إذا شاخت * اقتنِ الحقّ ولا تبعه، والحكمة والأدب * أبو الصدّيق يبتهج ابتهاجا ومن ولدَ حكيما يسرّ به * يفرح أبوك وأمّك وتبتهج التي ولدتك * يا بنيّ اعطني قلبك ولتلاحظ عيناك طرقي * لأنّ الزانية هوّة عميقة والأجنبيّة حفرة ضيّقة * هي أيضا كلصّ تكمن وتزيد الغادرين بين الناس * لمن الويل ؟ لمن الشقاوة ؟ لمن المخاصمات ؟ لمن الكرب ؟ لمن الجروح بلا سبب ؟ لمن ازمهرار العينين ؟ * للذين يدمنون الخمر، الذين يدخلون في طلب الشراب الممزوج * لا تنظر إلى الخمر إذا احمرّت حين تظهر حِبابَها في الكأس وساغت مرقرقة * في الآخر تلسع كالحيّة وتلدغ كالأفعوان * عيناك تنظر الأجنبيّات وقلبك ينطق بأمور

ملتوية * وتكون كالمضطجع في قلب البحر أو كالمضطجع على رأس سارية).

وفي الإنجيل العديد من الأمثال كذلك التي وردت لإقناع العقل منها:

الأسباب : * جاء في إنجيل متّى 13: 10-13 (فتقدّم التلاميذ وقالوا له : لماذا تكلّمهم بأمثال فأجاب وقال لهم " لأنّه قد أعطي لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السماوات وأمّا لأولئك فلم يُعطَ . فإنّ من له سيعطى ويزاد وأمّا من ليس له فالذي عنده سيؤخذ منه، من أجل هذا أكلّمهم بأمثال لأنّهم مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون).

- **مثل الزارع وتفسيره: متّى 13: 1-23** (هو ذا الزارع قد خرج ليزرع، وفيما هو يزرع سقط بعضٌ على الطريق فجاءت الطيور وأكلته، وسقط آخر على الأماكن المحْجرة حيث لم تكن له تربة كثيرة فنبت حالاً إذ لم يكن له عمقُ أرض. ولكن لمّا أشرقت الشمس احترق، وإذا لم يكن له أصل جفّ . وسقط آخر على الشوك فطلع الشوك وخنقه. وسقط آخر على الأرض الجيّدة فأعطى ثمرا بعضٌ مئة وآخر ستين وآخر ثلاثين من له أذنان للسمع فليسمع.)... (فاسمعوا أنتم مثل الزرّاع ، كلّ من يسمع كلمة الملكوت ولا يفهم فيأتي الشرّير ويخطف ما قد زُرع في قلبه. هذا هو المزروع على

الطريق. والمزروع على الأماكن المحجرة هو الذي يسمع الكلمة وحالا يقبلها بفرح ولكن ليس له أصل في ذاته بل هو إلى حين فإذا حدث ضيق أو اضطهادٌ من أجل الكلمة فحالاً يعثر. والمزروع بين الشوك هو الذي يسمع الكلمة وهم هذا العالم وغرورُ الغِنَى يخنقان الكلمة فيصير بلا ثمر. وأمّا المزروع على الأرض الجيّدة فهو الذي يسمع الكلمة ويفهمُ وهو الذي يأتي بثمر فيضع بعضٌ مئة وآخر ستّين وآخر ثلاثين). وهو بذلك يمثّل لتلقّى البنى الثلاث لكلام الله.

الأمثال في القرآن الكريم :

جاء عن أسباب ضرب الأمثال في القرآن الكريم :

- ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٨٩ ﴾ 89 الإسراء
- ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤ ﴾ 54 الكهف.
- ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٠ ﴾ 60 **النحل.**

- ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ 43 العنكبوت
- ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ 27 الروم
- ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ 58 الروم
- ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ 27 الزمر
- ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ 17 الرعد
- ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ 25 إبراهيم
- ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾ 45 إبراهيم
- ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٣٥﴾ ﴾ 35 النور
- ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ 21 الحشر

- ﴿ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَالَهُمۡ ۝٣ ﴾ 3 محمد
- ﴿ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ۝٣٣ ﴾ 33 الفرقان

وسنورد في الملحق (2) من ملاحق هذه الدراسة بالجزء الثالث أمثال سليمان والأمثال في الإنجيل والأمثال في القرآن الكريم لما لها من أثر في مخاطبتها بُنى الوعي.

الفصل الثالث

ترسيخ القيم وارتباط الإيمان بالعمل الصالح:

المبحث الأوّل: الدعوة لعمل الخير في الأديان

المبحث الثاني: رعاية وكفالة الأيتام

المبحث الثالث: الوصايا والتوجيهات الإلهيّة

المبحث الأوّل

الدعوة لعمل الخير في الأديان:

المحبّة وعمل الخير والإحسان والصالحات والعطاء الشامل هي المشاريع الأساسيّة لبنية الوعي الخلاق حيث تتجلّى الإنسانيّة في أسمى معانيها مدعومة بالوجدان المفتوح والفاعليّة المبدعة، وهي ماحرصت كلّ الأديان وجميع المفكرين والمصلحين والأنبياء والرسل والشعراء والمبدعين على الدفع بالبنى المغلقة إلى الانفتاح الوجداني واحتياز بنية الوعي الخلاق، حرصا منهم على إحداث النهضة بالبشرية وإخراجها من دائرة العنف والأنانيّة وحب الذات وكلّ الصفات السلبيّة إلى رحاب الإنسانيّة ودعم القيم والمثل والأخلاق. وتعزيز هذه البنية التي تحمل هذه القيم يحتاج إلى جهد ليس باليسير على قاعدة من الإيمان. لقد استعصى على كثير من الأنبياء والرسل هداية البشريّة ولاقوا عنتا وعدم استجابة في مجتمعاتهم، وجميع القصص القرآني توضّح لنا تلك المعاناة والجهد الذي بذله الرسل وما جابهوه من رفض أو تحوير أو تأويل لخطاباتهم. ذلك أنّ البُنى (وخاصّة بنية الوعي التناسلي) محكمة القبضة على مجتمعاتها ومن الصعوبة بمكان أن تتنازل عن برامجها وفق خصائصها لصالح بنية أخرى أوخطاب يدعوها إلى التنازل عن مهامّها أو تعديل قيمها، لأنّها قد اختطّت لمجتمعها قانونا أو دينا مجتمعيّا غير مكتوب يطلق عليه اسم "العرف" وهو ضارب بجذوره عبر توارثه عن الآباء والأجداد، ويصعب تجاوزه. وحتّى إذا ما تمّ تجاوزه

لمرحلة محدودة فسرعان ما تعود البنية من جديد لتأويل الخطاب الجديد لصالحها ووفق قناعاتها وما ترسّخ في بنية وعيها، أو عن طريق التخفّي والنفاق والرياء.

لذا بذل الخطاب الديني جهداً ليس باليسير لإقناع هذه البُنى عبر الخطاب السماويّ، وضرب لهم الأمثال لإقناعهم، وخاطبهم بالعلامات أوالآيات الكونيّة التي يشاهدونها أمام أعينهم، وقصّ عليهم من القصص المليئة بالمواعظ والعبر والحكم، وجاءهم بالمعجزات والخوارق إلى غير ذلك من الوسائل والأساليب التي اتبعها الرسل ليجدوا التصديق الذي يمكّنهم من إبلاغ رسائلهم وترسيخ القيم وفق الخطاب الديني، ومنهم من يئس ودعا ربّه لعقاب مجتمعه.

وقد تجاوزت الديانات ماهو راسخ في هذه البنية وأساسها الاقتصادي كاستعباد الإنسان لأخيه الإنسان، حيث ظلّ الرقّ عقبة كأداء لم يستطع الخطاب الديني إزاحتها أو تحريمها أو تجريمها وإن بذل جهداً في التخفيف من حدّتها عن طريق عتق الرقاب. كما بذل جهدا للتحكم في الغرائز وحدّد عقوبات عند التجاوز، حيث استجابت البنية التناسليّة لهذه الضوابط لما فيها من دعم برامجها التناسليّة والدعوة للعفّة وعدم اختلاط الأنساب الذي يشكّل عماد هذه المجتمعات. كما بذل جهداً في غرس المحبّة والتآخي بعد أن كان النفور والكراهية والبغض والحسد هو القاعدة بين تلك المجتمعات،

وحاول استبدال الأثرة بالإيثار، وحبّ الذات بحبّ الآخر، وعمل الخير ومساعدة الفقير والمسكين ورعاية اليتيم وصلة ذي القربى وبرّ الوالدين، والوفاء بالعهد والوعد، والصدق في الحديث، والحثّ على العطاء الشامل.

ومع أنّ هذه البُنى تتلقى هذه القيم وتُعجب بها، ولكنها تجد نفسها عاجزة عن تمثلها والالتزام بها إلاّ حين تملك وجداناً مفتوحاً يؤهّلها لاستدماج بنية الوعي الخلاّق، حيث سعت الخطابات الدينيّة إلى جعل الرقابة ذاتيّة من خلال قرب الخالق منك، وتدوين كامل أعمالك التي ستحاسب عليها في الدار الآخرة. مارست الخطابات الدينيّة أسلوب الترغيب والترهيب في هذه المجتمعات وظلّت رغم ذلك هذه البنى عصيّة عليها، بل انتصرت البنى المغلقة بتأويل هذه الخطابات وتوظيفها لصالحها، وقد وجدت من يقوم بهذا التوظيف في فقهاء وظّفهم السلطان وأغدق عليهم من جهة، وأخرى في مجتمع منحهم السلطة لتتوافق فتاواهم بما يتناسب وقدرات البنية السائدة.

لهذا حرص الخطاب الديني في (القرآن الكريم) ليس إلى غرس الإيمان فقط بل إلى ربطه بالعمل الصالح وبعمل الخير فلا يأتي خطاب للذين آمنوا إلاّ ارتبط ذلك بواو العطف على هذا الإيمان ب " وعملوا الصالحات " حتى الذين يدينون بديانات أخرى ويؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون الصالحات فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فالمعاملة مع الآخر وعمل الصالحات وترويض النفس على عمل الخير دون منّ أوأذى، هي أساسيات كلّ الإيمان

وكلّ الشعائر، وبغير ذلك حتى لو كنت تؤدّي الشعائر شكليّة كاملة ناسياً أومتناسياً ما يترتّب عليها فإنّ الله يتوعدك بالويل لأنّك لا تخرج عن الرياء والظهور أمام الآخرين ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧ ﴾ فالشعائر وحدها لا تكفي والإيمان الذي لا يتبعه العمل الصالح لا قيمة له .. هكذا سعت الديانات لغرس القيم حتى تكون نابعة من وجدانك ولن تنبع منه إلاّ إذا امتلكت وجدانا مفتوحا محبّا للآخر في رحاب الإنسانيّة وأفقها المفتوح.

وانغلاق البُنى وقصورها وتدنّيها هي التي جعلت القرآن الكريم يصفها بالسلبيّة لمرجعيّتها الغريزيّة فوصفها بعدد من صفات هذا الإنسان حامل هذه البنية تتمثّل في ضعفه وعجلته وهلعه ويأسه وبخله وغروره وظلمه وجهله وخصومته وجدله وطغيانه وكنوده وكفرانه وخسرانه كما في الآيات التالية :

- الضعف : ﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ۝٢٨ ﴾ " النساء 28
- العجلة : ﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ۝١١ ﴾ الإسراء 11
- الهلع : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ ﴾ المعارج 19
- اليأس : ﴿ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۝٩ ﴾ هود 9
- البخل : ﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ۝١٠٠ ﴾ الإسراء 100
- الاغترار : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ﴾ الانفطار 6

- الظلم : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ إبراهيم 34
- الجهل : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ الأحزاب 72
- الخصومة : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٤﴾ ﴾ النحل4، يس 77
- الجدل : ﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾ ﴾ الكهف 54
- الطغيان : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ العلق 6
- الكنود : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴿٦﴾ ﴾ العاديات 6
- الكفران : ﴿ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ ﴾ هود 9
- الخسر : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ ﴾ العصر 2

مع كلّ هذه الجوانب السلبية التي تحملها طبيعة الإنسان الحامل للبنى المغلقة والمحصور في هدف الإنجاب والتكاثر أو هدف جمع المال واكتناز الثروة طرح المشروع الديني في الإنجيل وفي القرآن الكريم كيفيّة التمرّد والخروج لبنية الوعي الخلاق وامتلاك الوجدان المفتوح حيث ربط القرآن الكريم الإيمان بالعمل الصالح، والإقرار بالقلب مع السلوك ، والعبادات مع المعاملات، وذلك ما جعل الإسلام دعوة حضاريّة لإنقاذ البشريّة والدفع بها إلى أفق الإنسانيّة الأرحب.

وقد أورد د. عبدالرحمن حللي[1] أن جذر آمن قد ورد في القرآن الكريم 950 مرّة، وأبرز الاشتقاقات المستخدمة منه صيغة الفعل آمن بمختلف أحوالها وصيغها 380 مرّة، وصيغة الذين آمنوا تكرّرت 220 مرّة، صيغة النداء فيها "يا أيّها الذين آمنوا" تتكرّر 89 مرّة متضمّنة الإرشاد والأمر والتوجيه للمؤمنين، وتكرّرت العبارة التقريريّة "إنّ الذين آمنوا" 16 مرّة وفيها بيان مصير المؤمنين وصفاتهم، وقد اقترن العمل الصالح في هذا التركيب "الذين آمنوا وعملوا الصالحات" 51 مرّة، وهي معظم ما اقترن به الإيمان مع العمل الصالح في صيغ أخرى التي بلغ مجموعها 69 مرّة.وعن دلالات الاقتران بين الإيمان والعمل الصالح لاحظ د. الحللي بعض المعالم منها:

- أن الدين (علم وعمل) = الإيمان/ العمل الصالح، فالأعمال الصالحات تم تفصيلها في القرآن الكريم بالحديث عن البرّ والتقوى والأمر بالخير والمعروف والأوامر المقترنة بنداء الذين آمنوا والامتناع عن أضداد كلّ ذلك، وهذا التنصيص وصف للذين آمنوا بعملهم الصالحات إنّما هو حديث عن النموذج الأسمى للاستقامة الممكنة في هذه الدنيا والذي يمكن أن يطمح إليه الإنسان (بنية الوعي الخلاق)، ونتيجة لذلك فإنّ هذه السياقات القرآنيّة التي اقترن فيها الذين آمنوا وعملوا الصالحات هي النموذج الأمثل للنهضة

[1] اقتران الإيمان بالعمل الصالح في القرآن الكريم ودلالاته، مجلّة جامعة دمشق للعلوم الاقتصاديّة والقانونيّة، م 27، ع 3، 2011م.

وسننها. وبناء على أصل الاقتران فلا يمكن تصوّر علم يقود إلى نهضة بمفرده ما لم يقترن بالعمل.

- النهضة تبنى على علم الجماعة وأعمالها: ما يلفت النظر في سياقات اقتران الإيمان والعمل الصالح أنّ الغالب فيها الحديث بصيغة الجمع "الذين آمنوا وعملوا الصالحات" وهذه الصياغة جاءت جمعاً في المتحدّث عنهم وعن أعمالهم، فهم جماعة تبنّوا تصوّرا واحداً (آمنوا) وأسّسوا على هذا التصوّر أعمالا هي الصالحات، وعلى ذلك فالنهضة شأن الجماعة وليست جهدا فرديّا فهي قضيّة الأمّة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ ﴾ البيّنة 7 ، فالنهضة تقتضي تصوّراً مشتركاً بين الجماعة وهو الإيمان وهذا الإيمان هو منطلق العمل وإرساؤه أساس لاستقامة العمل وصلاحه.

ويذهب د. الحللي إلى أنّ الإنسان العامل والجاد إنّما ينظر ابتداء إلى مستقبل عمله ومصيره، لذلك حفلت معظم الآيات التي اقترن فيها الحديث عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالحديث عن النجاة في الآخرة والجزاء والثواب الذي يناله المؤمنون العاملون للصالحات، وهذا جزاء مختلف عن الوعد الإلهي بالنجاة، إنّما يزيد الله هذا الصنف طمأنينة إلى نوعيّة الأجر، فبالإضافة إلى ما اقترن من الحديث عن الجنّة للذين آمنوا وعملوا

الصالحات (تكرّر في 23 آية) تكرّر مع هذه الآيات الوعد بالخلود والبشارة وتكفير الذنوب وتوفية الأجر وعدم الخوف، ومضاعفة الجزاء الذي وصف بأنّه كبير وغير ممنون ومن فضل الله. ولا يمكن أن تقوم النهضة بجهد أناني أو نتيجة عمل قصير النظر، لذلك كان المستقبل الأبدي والمصير هو أغلب اقترانات الحديث عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، نظراً إلى كون هذا المستقبل حاضراً في تصوّراتهم إذ هو جزء من أركان إيمانهم.

وهذا البعد الرسالي للعمل الصالح الذي تتبناه بنية الوعي الخلاق، والجهد النهضوي سيجعل الجماعة هي الغاية، والإصلاح في الأرض هو عنوان الصلاح لذلك قوبل الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمفسدين ﴿ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨ ﴾ 28 ص.

الدعوة لعمل الخير في المسيحيّة:

- **جاء في رسالة بولس 6: 1-10(** أيّها الإخوة، إن سبق إنسانٌ فأُخذ في زلّة ما، فأصلحوا أنتم الروحانيّين مثل هذا بروح الوداعة، ناظرا إلى نفسك لئلاّ تجرّب أنت أيضا. احملوا بعضكم أثقال بعض، وهكذا تمّموا ناموس المسيح، لِأنّه إن ظنّ أحد أنّه شيء وهو ليس شيئا، فإنّه يغشّ نفسه. ولكن ليمتحن كلّ واحد عمله، وحينئذٍ يكون

له الفخر من جهة نفسه فقط، لا من جهة غيره. لأنّ كلّ واحد سيحمل حمل نفسه. ولكن ليشارك الذي يتعلّم الكلمة المعلّمَ في جميع الخيرات. لا تضلّوا .. الله لا يُشْمَخُ عليه، فإنّ الذي يزرعه الإنسان إيّاه يحصد أيضا. لأنّ من يزرع لجسده فمن الجسد يحصد فسادا، ومن يزرع للروح فمن الروح يحصد حياةً أبديّةً . فلا تفشل في عمل الخير لأنّنا سنحصد في وقته إن كنّا لا نكلّ. فإذاً حسبما لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع ، ولا سيّما لأهل الإيمان).

الحثّ على عمل الصّالحات والإنفاق وفعل الخير(في القرآن الكريم)

الارتباط الوثيق بين الإيمان وعمل الصالحات:

ومن أهمّ ما حمله خطاب النصّ القرآني بعد الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله ورسله واليوم الآخر هو حثّ بنى الوعي الإنساني إلى عمل الصالحات فهي خير عند الله لذا ارتبط العمل الصالح بالإيمان، فما من خطاب إلى الذين آمنوا إلاّ اقترن معه (وعملوا الصالحات) وهذا ارتباط له دلالته في الارتقاء بالوعي البشري من الانغلاق إلى الانفتاح نحو الأفق الإنساني، وسنتابع في الملحق الثالث من هذه الدراسة الآيات التي ربطت بين الإيمان

والعمل الصالح والإنفاق وفعل الخير لنرى المدى الذي يركز عليه الخطاب القرآني .

المبحث الثاني

رعاية وكفالة اليتامى :

في المجتمعات ذات البنية التناسليّة دائما ما يجد اليتيم نفسه على هامش المجتمع، ولا يجد سوى الشفقة والنظرة الدونيّة لوضعه وخاصّة الاقتصادي، حيث تعمل موجّهات البنية على غريزة الأنانيّة وحب النفس وامتلاك الأبناء فيفقد الأيتام عنصرا هامّا من عناصر الرعاية والتربية والاهتمام والمحبّة كبقيّة أقرانهم التي كان سيوفّرها لهم الآباء، بل قد يتم التجاوز عليهم بأكل أموالهم بالباطل، فاليتم لا سند له في بيئة منشغل كلّ فرد فيها بنفسه وأسرته، حيث يعيش اليتيم مضطهدا ومنبوذا ومهيض الجناح، لا من يوفر له احتياجاته الماديّة ولا المعنويّة، وإذا تمّ ذلك فمن حيث العطف والشفقة والصدقة التي يتبعها المنّ والأذى، لذا ففي كثير من الأحيان يعتمد اليتيم على نفسه ويواجه التحدّي منذ الصغر من حيث التفكير في هذه الحياة ووضع رؤية لكيفيّة التعامل معها ويثبت جهدا ليس باليسير لإثبات وجوده فيتيح له المجتمع بإهماله له من الخروج على هذه البنية وتبنّي بنية بديلة

عن السائدة بطرح مشروع جديد، وليس مصادفة أن نجد غالبيّة الرسل والأنبياء والمفكرين والمصلحين والشعراء والمبدعين قد عايشوا اليتم وتصالحوا معه، إنّه تماما كالنبتة التي لا تجد الرعاية والحماية فتعتمد على ذاتها في مجابهة عصف الرياح فيزيدها ذلك عزما وقوّة مفعّلة قدراتها الداخليّة فتنمو بعصاميّة دون حاجة لعون أحد، ولكنّها تكابد في هذا التحدّي وهذه المجابهة.

لذا أخذ اليتم مساحة في الخطاب القرآني توجيها لهذه البنية القاصرة بأن لا يتم الاعتداء عليه ولا يهضم حقّه ولا أمواله بل عليه أن تكفله وترعاه وتجعله أسوة بأبنائها حتى لو اقتضى الأمر الزواج من أمّه الأرملة لتكون الرعاية أقرب وألصق وأصدق. وفي هذا قيمة إنسانيّة رفيعة وجّه بها القرآن الكريم في العديد من آياته، وحدّث بها المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي هو نفسه نشأ يتيما كمعظم الرسل السابقين. بل جعل كافل اليتيم على درجة عالية رفيقا له في الجنّة، حتى لا يكون اليتيم مهيض الجناح في مجتمع ينبغي أن يكون إنسانيّا.

ويركّز الخطاب القرآني على القيم الإنسانيّة المثلى حين يمنح جانبا هامّا من خطابه للحث على رعاية اليتيم والعناية به وحفظ أمواله وكفالته، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " أنا وكافل اليتيم كهاتين" مشيراً بإصبعيه. ونتابع هنا الآيات التي تحضّ على ذلك ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١

فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ ﴾ وفي الملحق (4) من هذه الدراسة سنعرض للآيات التي تدعو لكفالة اليتيم وتحثّ على ذلك وتؤكّد على ضرورته رابطة بينه وبين الإيمان.

المبحث الثالث

الوصايا والتوجيهات الإلهيّة:

لقد ظلّت التوجيهات والوصايا العشر هي أرفع الآثار الموسويّة وأبرزها في التراثين اليهودي والمسيحي. تلقّفها موسى منقوشة على لوحي الشريعة في جبل حوريب، وتعتبر – كما أشارت ويكيبيديا – وصايا العقل، أساسيّة في إلزامها بحيث لايمكن أن يُعفى أحد من الالتزام بها . وفي العهد الجديد حين سُئل المسيح : أيّ عمل صالح أعمل لأرث الحياة الأبديّة ؟ أجاب "احفظ الوصايا" . وقد اعتبرت خلاصة القوانين الأساسيّة للتصرّف الإنساني، فاليهود والمسيحيّون يرجعون إليها لكي يتعلّموا منها كيفيّة التصرّف في الحياة الأخلاقيّة. بمعنى أنّها تصبّ في جهد أنسنة البشر وتقويم السلوك البشري وإحداث نقلة قيميّة في مكارم الأخلاق .

وذات الوصايا العشر التي جاءت في العهد القديم وأقرّها الإنجيل جاءت كذلك في القرآن الكريم في سورة الأنعام (151–153) كما جاءت ذات الوصايا العشر بتفصيلات في سورة الإسراء (23–39) وسنعرض لهذه الوصايا والتوجيهات الإلهية الأخرى في الكتاب المقدّس والقرآن الكريم.

الوصايا والتوجيهات في التوراة:

الخروج : الوصايا العشر 20: 3–16

- لا يكن لك آلهة أخرى أمامي.
- لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة مّا ممّا في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض.
- لا تسجد لهنّ ولا تعبدهنّ.
- لا تنطق باسم الربّ إلهك باطلا، لأنّ الربّ لا يبرّئ من نطق باسمه باطلا.
- ستّة أيّام تعمل وتصنع جميع عملك، وأمّا اليوم السابع ففيه سبت الربّ إلهك.
- لا تصنع عملا مّا أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك، لأنّ في ستّة أيّام صنع الربّ السماء والأرض والبحر وكلّ ما فيها، واستراح في اليوم السّابع.

- اكرم أباك وأمّك لكي تطول أيّامك على الأرض التي يعطيك الربّ إلهك.
- لا تقتل.
- لا تزنِ.
- لا تسرق.
- لا تشهد على قريبك شهادة زور.
- لا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا ممّا لقريبك.

الخروج (22: 21–31):

- لا تضطهد الغريب ولا تضايقه.
- لا تسيء إلى أرملة مّا ولا يتيم. إن أسأت إليه فإن صرخ إليّ أسمع صُراخه فيحمى غضبي وأقتلكم بالسيف فتصير نساؤكم أرامل وأولادكم يتامى.
- إن أقرضت فضّة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي، لا تضعوا عليه ربا.
- إن ارتهنت ثوب صاحبك فإلى غروب الشمس تردّه له. لأنّه وحده غطاؤه، هو ثوبه لجلده في ماذا ينام . فيكون إذا صرخ إليّ أنّي اسمع، لأنّي رؤوف.

- لا تسبّ الله، ولا تلعن رئيسا في شعبك.
- لا تؤخر ملء بيدرك وقطر معصرتك، وأبكار بنيك تعطيني.
- كذلك تفعل ببقرك وغنمك سبعة أيّام يكون مع أمّه وفي اليوم الثامن تعطيني إيّاه.
- ولحم فريسة في الصحراء لا تأكلوا. للكلاب تطرحونه.

الخروج : أحكام العدل والرحمة (23: 1–9)

- لا تقبل خبرا كاذبا، ولا تضع يدك مع منافق لتكون شاهد ظلم.
- لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر.
- ولا تجب في دعوى مائلا وراء الكثيرين للتحريف.
- ولا تحابِ مع المسكين في دعواه.
- إذا صادف ثور عدوّك أو حماره شاردا تردّه إليه.
- إذا رأيت حمار مبغضك واقعا تحت حمله وعدلت عن حلّه فلابدّ أن تحُلّ معه.
- لا تحرّف حقّ فقيرك في دعواه.
- ابتعد عن كلام الكذب.
- ولا تقتل البريء والبار، لأنّي لا أبرّر المذنب.
- ولا تأخذ رشوة، لأنّ الرشوة تعمي المبصرين وتعوّجُ كلام الأبرار.

- ولا تضايق الغريب، فإنّكم عارفون نفس الغريب، لأنّكم كنتم غرباء في أرض مصر.

الخروج : فرائض السبت والأعياد: (23: 12-13)

- ستّة أيّام تعمل عملك، وأمّا اليوم السابع ففيه تستريح لكي يستريح ثورك وحمارك.
- كلّ ما قلت لكم احتفظوا به ولا تذكروا اسم آلهة أخرى، ولا يُسمع من فمك.

الوصايا والتوجيهات في الإنجيل:

متّى : 5 الموعظة والتطويبات:

5: 1-12 (ولمّا رأى الجموع صعد إلى الجبل، فلمّا جلس تقدّم إليه تلاميذه ففتح فاه وعلّمهم قائلا :

طوبى للمساكين بالروح، لأنّ لهم ملكوت السماوات.

طوبى للحزانى لأنّهم يتعزّون.

طوبى للودعاء، لأنّهم يرثون الأرض.

طوبى للجياع والعطاش إلى البِرّ لأنّهم يُشبعون.

طوبى للرحماء لأنّهم يُرحمون.

طوبى للأنقياء القلب، لأنّهم يُعاينون الله.

طوبى لصانعي السلام لأنّهم أبناء الله يُدعون.

طوبى للمطرودين من أجل البِرّ لأنّ لهم ملكوت السماوات.

طوبى لكم إذا عيّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كلّ كلمة شرّيرة من أجلي كاذبين.

افرحوا وتهلّلوا لأنّ أجركم عظيم في السماوات فإنّهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم.).

- **ملح الأرض ونور العالم 5: 13-16** (أنتم ملح الأرض، ولكن إذا فسد الملح فبماذا يُملّح ؟ لا يصلح بعدُ لشيء إلاّ لأن يطرح خارجا ويداس من الناس * أنتم نور العالم لا يمكن أن تختفي مدينة موضوعة على الجبل * ولا يوقدون سراجا ويضعونه تحت المكيال بل على المنارة فيضيء لجميع الذين في البيت * فليضيؤ نوركم هكذا قدّام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجّدوا أباكم الذي في السماوات).

- **إكمال الناموس 5: 17-20** (لا تظنّوا أنّي جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل * فإنّي الحقّ أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل * فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السماوات، وأمّا من عمِلَ وعلّم فهذا يدعى عظيما في ملكوت السماوات * فإنّي أقول لكم : إنّكم إن لم يزد بِرّكم على الكتبة والفرّيسيين لن تدخلوا ملكوت السماوات.
- **الله يعتني بنا:**
- **متّى 6: 25-34** (لذلك أقول لكم : لا تهتمّوا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس؟ انظروا إلى طيور السماء، إنّها لا تزرع ولاتحصد ولا تجمع إلى مخازن وأبوكم السماوي يقوتها. ألستم أنتم بالأحرى أفضل منها؟ ومن منكم إذا اهتمّ يقدر أن يزيد على قامته ذراعا واحدة ؟ ولماذا تهتمون باللباس ؟ تأمّلوا زنابق الحقل كيف تنمو .. لا تتعب ولا تغزل، ولكن أقول لكم : إنّه ولا سليمان في كلّ مجده كان يلبس كواحدة منها. فإن كان عشب الحقل الذي يوجد فيه اليوم ويطرح غدا في التنّور يلبسُه الله هكذا،

أفليس بالحريّ جدّا يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان ؟ فلا تهتمّوا قائلين : ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس ؟ فإنّ هذه كلّها تطلبها الأمم. لأنّ أباكم السماوي يعلم أنّكم تحتاجون إلى هذه كلّها. لكن اطلبوا أوّلا ملكوت الله وبرّهُ ، وهذه كلّها تزاد لكم . فلا تهتمّوا للغد لأنّ الغد يهتمّ بما لنفسه ، يكفي اليومَ شرُّهُ).

- **إدانة الآخرين :**
- **متّى 7: 1–5** (لا تدينوا لكي لا تُدانوا، لأنّكم بالدينونة التي بها تدينون تُدانون وبالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم . ولماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك وأمّا الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها ؟ أم كيف تقول لأخيك دعني أُخرجُ القذى من عينك وها الخشبة في عينك ؟ يا مرائي اخرج أوّلا الخشبة في عينك وحينئذ تبصر جيّدا أن تُخرج القذى من عين أخيك).
- **اسألوا، اطلبوا، اقرعوا :**
- **متّى 7: 7–12** (اسألوا تُعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم ، لأنّ كلّ من يسأل يأخذ، وكلّ من يطلب يجد، ومن يقرع يفتح له. أم أيّ إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزا يعطيه حجرا ؟ وإن سأله سمكة يعطيه حيّة ؟ فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تُعطوا أولادكم عطايا جيّدة ، فكم بالحريّ أبوكم الذي في السماوات يهب خيرات للذين

يسألونه. فكلّ ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضا بهم لأنّ هذا هو الناموس والأنبياء).

- **الباب الضيّق :**
- **متّى 7: 13-14** (ادخلوا من الباب الضيّق، لأنّه واسع الباب ورحب الطريق الذي يؤدّي إلى الهلاك. وكثيرون هم الذين يدخلون منه. ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدّي إلى الحياة وقليلون هم الذين يجدونه).
- **الشجرة وثمرها :**
- **متّى 7: 15-23** (احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنّهم من داخل ذئاب خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنون من الشوك عنبا، أو من الحسك تينا ؟ هكذا كلّ شجرة جيّدة تصنع أثمارا جيّدة، وأمّا الشجرة الرديّة فتصنع أثمارا رديّة . لا تقدر شجرة جيّدة أن تصنع أثمارا رديّة، ولا شجرة رديّة أن تصنع أثمارا جيّدة . كلّ شجرة لا تصنع ثمرا جيّدا تقطع وتلقى في النار. فإذاً من ثمارهم تعرفونهم. ليس كلّ من يقول لي : يارب يارب يدخل ملكوت السماوات، بل الذي يفعلُ إرادة أبي الذي في السماوات كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم : يارب يارب. أليس باسمك

تنبّأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوّاتٍ كثيرة ؟ فحينئذٍ أصرّح لهم : إنّي لم أعرفكم قط . اذهبوا عنّي يا فاعلي الإثم).

- **البنّاؤن الحكماء والبنّاؤون الجهلاء :**
- **متّى 7: 24-28** (فكلّ من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها أشبّهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر، فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبّت الرياح ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط لأنّه كان مؤسّسا على الصخر. وكلّ من يسمع أقوالي هذه ولا يعمل بها يشبّه برجل جاهل بنى بيته على الرمل، فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبّت الرياح، وصدمت ذلك البيت فسقط وكان سقوطه عظيما).
- **الوصيّة العظمى :**
- **متّى 22: 35-39** (وسأله واحد منهم وهو ناموسيّ ليجرّبه قائلا: يا معلّم أيّة وصيّة هي العظمى في الناموس ؟ فقال له يسوع : " تحبّ الربّ إلهك من كلّ قلبك، ومن كلّ نفسك، ومن كلّ فكرك، هذه هي الوصيّة الأولى والعظمى. والثانية مثلها : تحبّ قريبك كنفسك. بهاتين الوصيّتين يتعلّق الناموس كلّه والأنبياء").
- **محبّة الأعداء :**

- **متّى 5: 43-48** (سمعتم أنّه قيل : تحبّ قريبك وتُبغض عدوّك. وأمّا أنا فأقول لكم : أحبّوا أعداءكم باركوا لاعنيكم إحسنوا إلى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات ، فإنّه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر الأبرار والظالمين. لأنّه إن أحببتم الذين يحبّونكم فأيّ أجر لكم ؟ أليس العشّارون أيضا يفعلون ذلك ؟ وإن سلّمتم على إخوتكم فقط فأيّ فضل تصنعون ؟ فكونوا أنتم كاملين كما أنّ أباكم الذي في السماوات هو كامل).

الوصايا والتوجيهات في القرآن الكريم:

أوّلا: الوصايا العشر في القرآن الكريم:

- **جاء في سورة الأنعام 151-153** ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـٔٗاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنٗاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ١٥١ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

﴿ ١٥٢ ﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿ ١٥٣ ﴾ **وهي ذات الوصايا العشر التي وصّى بها موسى وأقرّها عيسى (حيث جاءت الآية التي تليها** 154 ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿ ١٥٤ ﴾ **والمتمثلة في:**

1- عدم الوقوع في الشرك باتخاذ آلهة وأولياء مع الله تعالى

2- الإحسان للوالدين.

3- النهي عن قتل الأولاد بسبب الوقوع في الفقر

4- النهي عن الاقتراب من العلاقات الجنسية المحرّمة سواء كانت علنيّة أوسريّة.

5- النهي عن قتل النفس التي لم ترتكب جريمة قتل.

6- النهي عن أكل مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن كأن تكون مقابل رعايته واستثمار ماله.

7- توفية الكيل والميزان بالقسط والعدل.

8- العدل في القول، قول الحقّ حتى لو كان ضارّا بأقرب الناس إليك.

9- الوفاء بالعهد الإلهي من أداء الفرائض.

10- اتباع القرآن الكريم وحده باعتباره الطريق المستقيم للهداية.

كما جاءت الوصايا العشر أكثر تفصيلا في سورة الإسراء (23–39):

- ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٣٠ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ٣٣ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ

فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ فإضافة إلى الوصايا العشر التي جاءت مفصّلة أضيفت إليها وصيّة جديدة بحق جديد من حقوق الإنسان هو حق الخصوصيّة وألاّ ينتهك أحد خصوصيّات الآخرين، وهذا ما توسّعت فيه سورة الحجرات (11-12).

ثانيا: التوجيهات التي وردت في القرآن الكريم لتقويم السلوك الإنساني وسنعرض لها في الملحق (5) من هذه الدراسة.

الفصل الرابع

توظيف الخطاب الديني

المبحث الأوّل: قضايا موروثة فهماً وتطبيقا.

- التعدّد في الزواج عرف جاهليّ سعى الإسلام للحدّ منه
- أحاديث شقّ الصدر
- السهو عن الصلاة ليس تأخيرها
- القطع وليس التقطيع عقوبة السارق
- توظيف الدّين لصالح العرف في مدّة حمل الجنين
- ليس من نصّ يحرّم المصافحة.

المبحث الثاني :إسلام التسامح في كتاب الله وإسلام العنف لدى الفقهاء.

- الناسخ والمنسوخ صناعة الفقهاء.

المبحث الأوّل

قضايا موروثة فهما وتطبيقا

التعدّد في الزواج

(عرف جاهليّ سعى الإسلام للحدّ منه):

كما كان العرب في جاهليّتهم يفرقون بين الحرّ والعبد بين الحرائر والإماء أوما ملكت الأيمان باعتبارها عرفا اجتماعيا واقتصاديا هامّا لديهم، وحين جاء الإسلام لم يستهجن استعباد إنسان لأخيه الإنسان بل سعى للحدّ من ظاهرة الاسترقاق بالعتق والكفّارة لأنّهم ما كانوا ليقبلون تدمير حياتهم الاجتماعيّة والاقتصاديّة الراسخة لديهم، كما تدرّج بهم في شرب الخمر. كذلك كان العرب يجيزون تعدّد الزوجات إلى غير حدّ "ولم يكونوا يستسيغون تحديد عدد الزوجات"[1] أو الاكتفاء بواحدة، لأنّ طبيعة العرب كانت تعتمد على الصراع والغزو والسلب والنهب، وهذا يحتّم عليهم أن يتناسلوا وأن يكثروا من الأبناء الذكور ليكون للقبيلة اعتبارها بين القبائل حيث يشكل الأبناء القوّة المدافعة عن العرض وشرف القبيلة، وبمراجعة الغزوات وأيّام

[1]خليل عبدالكريم، الجذور التاريخيّة للشريعة الإسلاميّة، سينا للنشر، ط1، 1990، ص38 نقلا عن أ. عبدالقادر عودة- التشريع الإسلامي القسم العام ص 54، ط نادي القضاة 1984م

العرب والحروب بين القبائل العربيّة حول الكلأ والماء ينجلي تماما هذا الأمر..

وحين جاء الإسلام سعى إلى أن يحدّ من ظاهرة تعدّد الزوجات بما يشجّع المسلمين لفعل الخير والزواج لكفالة الأيتام حتى أربع زوجات ليوفّق بين ما هو راسخ عندهم وبين توظيفه لكفالة الأيتام والزواج لأجل رعايتهم، إلا أنّهم اعتبروها تحديداً بأربع زوجات على المطلق ودون هدف أو غاية أو حكمة . ومع ذلك لم يكن هذا القيد قادراً على كبح جماح العربي " فكان الطريق إلى الإفلات منه والاستمتاع بأيّ عدد من الزوجات هو الطلاق، فمن حقّ المسلم أنّ يطلّق زوجته ويتزوّج غيرها بشرط ألاّ تجتمع لديه في وقت واحد أكثر من أربع زوجات، هذا بخلاف الإماء أو الجواري أو السراري أو ملك اليمين فهؤلاء لا حدّ على امتلاك أيّ عدد منهن – ولذا وجدنا من الصحابة من تزوّج أعدادا وفيرة من الزوجات – بخلاف ملك اليمين – منهم الخلفاء الراشدون (رضي الله عنهم) ومنهم المبشّرون بالجنّة "[1]

جاء في الآية 26 من سورة النساء ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ وفي سنن الذين من قبلنا هي سنن العهد القديم الذي نزل على موسى وهي سنن العهد

[1]أبوجعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص425، تح: أ. محمد أبوالفضل إبراهيم، ط2، 1969م، دار المعارف مصر.

الجديد في الإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام ، وقد جاء في إنجيل متّى 19 ص27 من (3– 9) : " وجاء إليه الفرّيسون ليجرّبوه قائلين له : هل يحقّ للرجل أن يطلّق امرأته لكلّ سبب؟ فأجاب وقال لهم: أما قرأتم أنّ الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمّه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسداً واحدا . إذاً ليسا بعدُ اثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرّقه إنسان. قالوا له : فلماذا أوصى موسى أن يُعطى كتاب طلاق فتطلّق؟ قال لهم : إنّ موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلّقوا نساءكم، ولكن من البدء لم يكن هكذا. وأقول لكم: إنّ من طلّق امرأته إلاّ بسبب الزنا وتزوّج بأخرى يزني، والذي يتزوّج بمطلّقة يزني".

وجاء الطلاق في النصّ القرآني بتسامح أكبر حيث وردت اثنتي عشرة آية فيه منظّما ذلك بإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، كما منح الشارع فرصة الطلاق مرّتين أمّا الثالثة فلاتحلّ له بعدها حتّى تنكح زوجا غيره، والآيات الواردة فيه (البقرة 227، 228، 229، 230، 231، 232، 236، 237، 241– وفي سورة الطلاق الآية 1– وفي سورة الأحزاب الآية 49– وفي سورة التحريم الآية 5). وذلك ما مكنهم من الإفلات من تحديد التعدّد بأربع كما انفلتوا من سياق الآية في تحديد الأهداف والأبعاد الإنسانية.

أمّا استبدال الزوجة فقد ورد في الآية (20) من سورة النساء ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾ ولقد أوّلت العقليّة العربية ذات البنية التناسليّة الآية (3) من سورة النساء على أن تلك الآية تحلّ للرجل أن يتزوّج ثانية وثالثة ورابعة دون النظر إلى الإطار العام الذي وردت فيه، ففي الآية الأولى تحدّث النص عن أن الخلق من نفس واحدة وخلق منها زوجها وليس أزواجها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ أمّا الآية الثانية من ذات السورة فتتحدّث عن كفالة اليتامى ورعايتهم وعدم أكل أموالهم ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ بعد ذلك تأتي الآية الثالثة عن اليتامى كذلك وأنه أحلّ لأجل كفالتهم الزواج مثنى وثلاث ورباع ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ ﴾ تمّ تأويل هذه الآية التي تتحدّث عن اليتامى مبتدئة بإن الشرطيّة والتي جاء جواب شرطها فانكحوا ما طاب لكم من النساء، إلى أن ذلك يدلّ على أنّ الرجل يمكن أن يتزوّج الثانية والثالثة والرابعة على المطلق، مع أن مناخ الآية يتحدّث عن اليتامى وكفالتهم أي من أجل أن

تكفل اليتامى، فإن خفتم ألاّ تعدلوا في اليتامى فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى أن لا تعولوا عدداً منهم.

أمّا ما ذهبت إليه السيّدة عائشة رضي الله عنها من زواج اليتيمة وأن تقسطوا في مهرها فقد جاء في الآية السادسة ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦ ﴾ أمّا تأويلها كما ورد للآية الثالثة وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتيمة فانكحوا غيرها ما طاب لكم من النساء، فإنّه يتوافق مع الآية (127) من سورة النساء ﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧ ﴾ وقد استدلّ المفسّرون بتأويل السيّدة عائشة وأجمعوا على أنه يحلّ للرجل أن يتزوّج أربعة على المطلق دون النظر إلى الحكمة من وراء ذلك فالغزوات والحروب تترك كثيرا من النساء أرامل مع أبنائهنّ اليتامى. والسياق يتحدّث عن ذلك.

أولا : الآيات تتحدّث عن اليتامى في هذه الآية والتي قبلها.

ثانيا: استهلّت السورة بأنه ومنذ البدء خلق الله النفس وخلق منها زوجها..

ثالثا: ما الذي يعنيه الاستبدال في الآية (20) إذا كان التعدّد على المطلق.

رابعا : كيف يتمّ قطع جواب الشرط عن فعل الشرط لإنْ الشرطيّة بدء الآية ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ ۝٣ ﴾ ويؤخذ فقط ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۝٣ ﴾ .

خامسا : في الآية (26) ذكر الله جلّ شأنه ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦ ﴾ وسنن الذين من قبلنا قالت بالواحدة (الإنجيل) وقالت بالاستبدال (العهد القديم).

سادسا: كيف تؤوّل " فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة " على أنّها ألاّ تعدلوا بين النساء.. وهي ألاّ تعدلوا بين اليتامى، أمّا العدل بين النساء فقد ورد في الآية (129) من سورة النساء ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٢٩ ﴾ ففي الآية الثالثة الخوف في عدم العدل ليس بين النساء بل بين اليتامى، وهنا لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم، ممّا يدفع إلى تأويل فإن خفتم ألاّ تعدلوا بين اليتامى فواحدة.. أي أنّ الهدف من كل ذلك اليتامى والحرص عليهم وكفالتهم وليس الزواج بمثنى وثلاث ورباع على المطلق .

ولأنّ بنية العقليّة في المجتمع بنية تناسليّة ولأنّ السياسة في الدولة العبّاسيّة كانت تفرض مسارات معيّنة وتعاقب من يخالف من العلماء بالجلد أو السجن أو القتل فقد اتجه التفسير إلى أنّ للرجل أن يتزوّج بأربعة على المطلق دون قيد أو شرط، وذلك وفق النسخة الإسلاميّة التي وصلتنا من العصر العبّاسي فجاءت التفاسير والأحاديث التي صاحبت الآية (3) من سورة النساء متوافقة مع أنّ المقام مقام تأويل يمكن أن يكون فيه اختلاف..

- جاء في تفسير ابن كثير : أي إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف ألاّ يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها من النساء فإنّهنّ كثر ولم يضيّق الله عليه.(فهل ما سواها من النساء سيتزوجهنّ بغير مهر حتى يعدل إليهنّ؟)
- وعن عائشة رضي الله عنها أنّ رجلا كانت له يتيمة فنكحها وكان لها عذق وكان يمسكها عليه ولم يكن له من نفسه شيء فنزلت فيه " وإن خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى".
- وفي البخاري عن ابن شهاب، قال أخبرني عروة بن الزبير أنّه سأل عائشة عن قول الله تعالى" وإن خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى" قالت : يابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليّها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها فيريد وليّها أن يتزوّجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنُهوا أن ينكحوهنّ إلاّ يقسط

لهنّ ويبلغوا بهنّ على سنّتهنّ في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهنّ.

- وقال عروة : قالت عائشة " إنّ النساء استفتوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد هذه الآية فأنزل الله تعالى " ويستفتونك في النساء" قالت عائشة : وقول الله في الآية الأخرى " وترغبون أن تنكحوهنّ" النساء 127، رغبة أحدكم عن اليتيمة حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في ماله وجماله من يتامى النساء إلاّ بالقسط من أجل رغبتهم عنهنّ إذا كنّ قليلات المال والجمال.
- وروى رواة الحديث كذلك: أن الحارث بن قيس بن عمير الأسدي قال: أسلمت وعندي ثمان نسوة فذكرت للنبيّ صلى الله عليه وسلّم فقال : اختر منهنّ أربعا.
- وفي رواية أخرى أنّ غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة فقال له النبي صلى الله عليه وسلّم : اختر منهنّ أربعا، فلمّا كان في عهد عمر طلّق نساءه وقسّم ماله بين بنيه فبلغ ذلك عمر فقال : إنّي لأظنّ الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقذفه في نفسك، ولعلّك لا تمكث إلاّ قليلا، وأيم الله لتراجعنّ نساءك ولترجعنّ

في مالك أو لأورثهنّ منك ولآمرنّ بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال.

- وفي بعض الروايات أنّ رجلا من ثقيف طلّق نساءه وليس غيلان بن سلمة.
- وفي رواية أنّ نوفل بن معاوية الديلي قال: أسلمت وعندي خمس نسوة فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلّم : اختر أربعا أيّتهنّ شئت وفارق الأخرى، فعمدت إلى أقدمهنّ صحبة عجوز عاقر معي منذ ستين سنة فطلّقتها.
- وفي تفسير الشافعي أنّه وردت هذه الآية في شأن اليتيمة تكون في حجر وليّها، ثمّ يرغب في نكاحها من غير أن يعطيها مهر مثلها.
- قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف ألاّ يعطيها مهرها فليعدل إلى ما سواها من النساء فإنّهن كثير ولم يضيّق الله عليه. وقوله " فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم" أي فإن خشيتم من تعداد النساء ألاّ تعدلوا بينهنّ كما قال تعالى " ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم"129 النساء، فمن خاف من ذلك فيقتصر على واحدة أو على الجواري السراري[1].واختلف المفسّرون في تفسير قوله تعالى "

[1]تفسير القرآن العظيم 208 - 2- 212

ذلك أدنى ألاّ تعولوا " على قولين : القول الأوّل : ذلك أدنى ألاّ تظلموا وتجوروا، وهذا قول جماهير المفسّرين من الصحابة والتابعين والعلماء المحقّقين. والقول الثاني : ذلك أدنى ألاّ تكثر عيالكم.. قال الإمام الشافعي : أن لا يكثر من تعولون إذا اقتصر المرء على واحدة وإن أباح له أكثر منها.

- وقد روى ابن مردويه من طريق حجاج بن أرطأة عن عبدالملك بن المغيرة عن عبدالرحمن بن البيلماني عن عمر بن الخطّاب قال: خطب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: " انكحوا الأيامى" ثلاثا، فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله ما العلائق بينهم ؟ قال : " ما تراضى عليه أهلوهم". ومع أنّه ينسجم مع روح القرآن في الحضّ على اليتامى وكفالتهن، إلاّ أنّ ابن البيلماني قالوا عنه ضعيف ثم الحديث فيه انقطاع. مع أنّ الآية 32 من سورة النور تقول: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢ ﴾ يلاحظ في كلّ هذه الروايات :

1- اتفاق وكأنّه قد وزّع عليهم منشور لتوظيف الآية من أجل استمرار البنية في أداء دورها التناسلي، فكرّروا ذلك نصّا، ولم يختلف مفسّر واحد في حين أنّ الآية تحتاج إلى تأويل والتأويل أدعى للتباين ومشروع فيه الاختلاف.

2- حين يكون هناك تفسير يساير السلطة السياسيّة أو الاجتماعية أو ما هو سائد في العرف يسعى الرواة إلى وضع أحاديث تعضّد وتدعّم ما تمّ التوجيه به.

3- ما تمّ الاستشهاد به من أن النبي صلّى الله عليه وسلّم أجازه لأربع نساء تارة كان الحارث بن قيس بن عمير الأسدي فعندما أسلم له ثمان نسوة.. وتارة غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحته عشرة نسوة.. وتارة رجلا من ثقيف وليس غيلان بن سلمة.. وتارة نوفل بن معاوية الديلي الذي أسلم وعنده خمس نسوة، وحين عمد إلى تطليق واحدة كانت أقدمهنّ صحبة عجوز عاقر معه منذ ستين سنة دون مراعاة لوفاء الأعوام الستين التي قضتها معه وهو شيخ لا أقلّ من الثمانين سنة. وبذا فتح الباب للطلاق والزواج بتعدّد غير محدود .

4- التعدّد في الزوجات كان عرفا اجتماعيا قبل الإسلام كملك اليمين، وحاول النصّ القرآني آن يقلّل منه بعتق الرقاب حيث كان صعبا اقتلاعه وتحريمه، كذلك التعدّد كان سائدا ما شاء الرجل له أن يتزوّج فسعى النص القرآني إلى توظيفه بحيث يخدم فيه اليتامى من النساء أو الأرامل ومعهنّ أيتام يحتاجون لمن يكفلهم، إلا أنّ البنية سابقة للخطاب وعليه قامت بتوظيفه حسب عرفها محدّدة أربعا على المطلق.

5-لقد منع النبيّ صلى الله عليه وسلم عليّا رضي الله عنه من أن يتزوّج على ابنته فاطمة من بنت أبي جهل مع أنّها كانت مسلمة وكان أبوها قد مات، فجاء عن المسوَر بن مخرمة أنّ عليّ بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل وعنده فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمّا سمعت بذلك فاطمة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت له : إنّ قومك يتحدّثون أنّك لا تغضب لبناتك، وهذا عليّ ناكحا ابنة أبي جهل، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعته حين تشهّد يقول :" أمّا بعد فإنّي أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدّثني فصدقني ووعدني فوفى لي، وإنّما فاطمة بضعة منّي يؤذيني ما آذاها، وإنّها والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدوّ الله عند رجل واحد أبدا" قال: فترك عليّ الخطبة "[1]. وفي لفظ " فإنما هي بضعة منّي يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها"[2]. قال ابن القيّم " وفي ذكره صلى الله عليه وسلم صهره الآخر وثناءه عليه بأنّه حدّثه فصدقه ووعده فوفى له، تعريض بعلي رضي الله عنه وتهييج له على الاقتداء به، وهذا يشعر بأنّه وعد له بأنّه لا يريبها ولا يؤذيها، فهيّجه على الوفاء له، كما وفى له صهره الآخر"[3]. وفي

[1] رواه البخاري 3110 ومسلم 2449.
[2] البخاري 5230 ومسلم 2449.
[3] زاد المعاد 5: 118.

رواية البخاري (3110) " وأنا أتخوّف أن تفتن في دينها" وعند مسلم (2449) " إنّ فاطمة منّي وإنّي أتخوّف أن تفتن في دينها".

6- ولأنّ المصطفى صلى الله عليه وسلم يعلم أنّ الزواج المتعدّد يؤذي المرأة فلم يقبله على ابنته، رغم ورود حديث آخر " وأيم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها" فكيف به يغضب حين أراد عليّ أن يتزوّج بأخرى.. إنّه العرف الاجتماعيّ السائد والزواج المتعدّد في عصر ما قبل الإسلام، وبعد موت النبي صلى الله عليه وسلم تزوّج عليّ بثمانية أخريات، كما تزوّج عثمان بن عفان بتسع زوجات وعمر بن الخطاب بتسع زوجات وأبوبكر بأربع اثنان قبل الإسلام واثنان بعده. ولا نعني الجمع بين الزوجات لدى الخلفاء الراشدين دفعة واحدة ولكن حسب تأويل الآية أن تكون أربع نساء في عصمة أحدهم، وهذا يدلّل على أنّ التعدّد في الجاهليّة قد فرض نفسه، وصمت الرسول عن تفسير الآية التي تصدّت لها عائشة رضي الله عنها بالتأويل.

7- لقد ورد في كتب التاريخ أنّ **أبابكر الصديق** رضي الله عنه تزوّج اثنتان في الجاهليّة هما (فتيلة بنت عبدالعزّى، وأم رومان بنت عامر – والدة عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم) واثنتان في الإسلام :(أسماء بنت عميس – وحسيبة بنت خارجة – توفّي عنها

وهي حامل) وقد جاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها "أنّ أبابكر رضي الله عنه تزوّج امرأة من كليب كذلك يقال لها : أم بكر، فلمّا هاجر طلّقها فتزوّجها ابن عمّها" أمّا **عمر بن الخطّاب** فقد تزوّج تسعاً هنّ (زينب بنت مظعون بن حبيب وقد ولدت له حفصة أم المؤمنين وعبدالرحمن وعبدالله– أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وقد ولدت له زيداً ورقيّة– أم كلثوم بنت جرول بن مالك " وقد فرّق الإسلام بينهما" – وجميلة بنت ثابت بن أبي الأفلح وقد ولدت له عاصم بن عمر– وسريّة تسمّى لهيّة أنجبت له أبا جبير – وأم ولد أنجبت له عبدالرحمن الأصغر – وأم حكيم بنت الحارث بن هشام – وأم ولد تسمّى فكيهة أنجبت له زينب – وعالكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ابنة عمه). أمّا **عثمان بن عفّان** فقد تزوّج تسعاً (رقيّة بنت محمد – وأم كلثوم بنت محمد – فاطمة بنت غزوان – أم عمرو بن جندب – فاطمة بنت الوليد بن عبدشمس – وأم البنين عيينة بنت حصن – ورملة بنت شيبة بن ربيعة – ونائلة بنت الفراقصة بن الأحوص – وأم ولد أنجبت له أم البنين) أمّا **عليّ بن أبي طالب** كرّم الله وجهه، فقد تزوّج تسعاً (فاطمة بنت محمد وأولاده منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى– وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم خولة بنت جعفر بن قيس وولده

منها محمد الأكبر المعروف باسم محمد بن الحنفيّة – وأم البنين بنت حزام وأولاده منها العبّاس وجعفر وعبدالله وعثمان .– وليلى بنت مسعود بن خالد اليتيمة وولد منها يحى ومحمد وقيل عون– وأسماء بنت عميس – والصهباء أم حبيب بنت ربيعة التغلبيّة وولد منها عمر ورقيّة – وأمامة بنت العاص بن الربيع أمّها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وولده منها محمد الأوسط – وأم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفي وولده منها أم الحسن ورملة – ومحياة بنت امرئ القيس بن عدي الكلبيّة وولده منها جارية – وله بنات وبنين أخر رضي الله عنه وجميع أولاده لصلبه أربعة عشر ذكراً وسبع عشرة أنثى)

8–ولقد " قصّ علينا الإخباريّون أحوال الجانب الآخر (الزوجات) فقرأنا أنّ بعضهنّ تزوّجن خمسة أو أربعة أو ثلاثة أزواج وإلى القارئ بعض الأمثلة:(أ) **عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل**– ابنة عم عمر بن الخطّاب رضي الله عنه – تزوّجت خمسة (عبدالله بن أبي بكر، عمر بن الخطاب، طلحة بن عبيدالله – أحد المبشرين بالجنّة – محمد بن أبي بكر – عمرو بن العاص) (ب) – **أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط**، تزوّجت بأربعة (زيد بن حارثة – الزبير بن العوّام ، أحد المبشّرين بالجنّة – عبدالله بن عوف، مبشّر بالجنّة –

عمرو بن العاص) (ج) **عائشة بنت طلحة بن عبيدالله**، تزوّجت ثلاثة:(عبدالرحمن بن أبي بكر – مصعب بن الزبير بن العوّام – عمر بن عبيدالله) (د) **أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب** تزوّجت ثلاثة (عمر بن الخطاب – عون بن جعفر الطيّار بن أبي طالب – أخاه محمّدا) (هـ) **أم إسحق بنت طلحة بن عبيدالله**، تزوّجت ثلاثة (الحسن بن علي بن أبي طالب – الحسين بن علي بن أبي طالب – محمد بن عبيدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق) (و) **أسماء بنت عميس** ، تزوّجت ثلاثة (جعفر الطيّار بن أبي طالب – أبابكر الصدّيق – علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وعنهنّ) هذه الزوجات كلّهنّ قرشيّات بعضهنّ من بنات الخلفاء الراشدين أو العشرة المبشّرين بالجنّة، أمّا الأزواج ففيهم من الخلفاء الراشدين: الصديق والفاروق والإمام علي (رضي الله عنهم) وفيهم ثلاثة من العشرة المبشّرين بالجنّة: طلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف، أمّا الباقون فجلّهم من الصحابة أو من أبناء الصحابة"[1] ولعلّ هذا الصنيع من جانب الصفوة المختارة من المسلمين والمسلمات يدلّ دلالة أكيدة على أنّ التقاليد العربيّة التي كانت سائدة في الفترة السابقة على البعثة المحمّديّة تركت آثاراً واضحة لا على

[1]أبوالحسن علي بن محمد المدائني 135- 235هـ ، المردفات من قريش ص60 وما بعدها ضمن كتاب نوادر المخطوطات الجزء الأوّل، تحقيق أ. عبدالسلام هارون، ط2، 1972م ، مكتبة الخانجي بمصر.

النصوص المقدّسة فحسب بل على سلوكيّات المسلمين من ذوي السابقة. والسلوكيّات هنا على درجة متميّزة من الأهميّة لأنّها لم تصدر عن عامّة المسلمين ولكن قام بها أصحاب أو صحابة، وسلوك هؤلاء تشريع مثله مثل النصوص تماما... وهكذا تمكّن المسلمون ذوو السابقة منذ فجر الإسلام من تجاوز قيد الأربعة عن طريق الزواج والطلاق والزواج بأيّ عدد من الزوجات وهو التقليد الموروث من عرب ما قبل ظهور الإسلام"[1] وقد جاء في الأخبار أنّ الوحيد الذي اكتفى بزوجة واحدة هو (أبو عبيدة بن الجرّاح) ولوضع حدّ من هذه الانفلاتات التي حدثت لإباحة التعدّد المفتوح بالطلاق ، قال الطبري في تفسيره (تحقيق أحمد محمد شاكر) 5: 138 قد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال: " إنّ الله لا يحبّ الذوّاقين والذوّاقات" حدثنا بذلك ابن بشار قال حدثنا ابن أبي عدي وعبد الأعلى عن سعيد عن قتادة عن شهر بن حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم (قال الشيخ أحمد شاكر في تخريجه للحديث: شهر بن حوشب – تابعيّ ثقة، فالحديث بهذ الإسناد مرسل. وقد ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 4: 335 من حديث عبادة بن الصامت. وقال : رواه الطبراني . وذكر أيضا حديثا لأبي

[1] الجذور التاريخية للشريعة الإسلاميّة، خليل عبدالكريم ص43.

موسى مرفوعا:" لا تطلّق النساء إلا من ريبة إنّ الله تبارك وتعالى لا يحبّ الذوّاقين ولا الذوّاقات".. قال ابن الأثير : يعني السريعي النكاح السريعي الطلاق، وذكره الزمخشري في المجاز من كتاب الأساس وقال: كلّما تزوّج أو تزوّجت مدّ عينه أو عينها إلى أخرى أوآخر... وقد روي (لعن الله كلّ مذواق مطلاق)[1]

9- من كلّ ما سبق يتّضح أنّ التعدّد ما هو إلاّ عرف اجتماعيّ جاهلي تم تأويل الآية وتوظيفها بما يؤمّن لبنية الوعي التناسلي السائدة استمرار نهجها في التعدّد دون التقيّد بسياق الآية الذي حصر التعدّد في الصالحات وعمل الخير وكفالة الأيتام ورعايتهم، وذلك ما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يساير عليّا في التعدّد على ابنته فاطمة.

10- أمّا اتفاقهم على تفسير الآية على أنّها وردت في شأن اليتيمة تكون في حجر وليّها ثمّ يرغب في نكاحها من غير أن يعطيها مهر مثلها.. فما الذي كان عليه المهر أصلا حتى يصعب عليه أن يعطيها وقد حضّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم على عدم

1- [1]ورد في كتاب الطلاق في فتح القدير والمبسوط وتفسير الألوسي وفقه السنة والكشف والبيان للثعلبي كما أشار إلى ذلك موقع أهل التفسير vb.tafsir.net

المبالغة فيه فأقلّهنّ مهراً أكثرهنّ بركة. فالأمر هنا ليس في إعطائهنّ مهورهن وعدم الاستطاعة، إذن فكيف يعطي المهور للأخريات؟.

11- يلاحظ فيما سبق أنّ العقليّة العربيّة المسيّجة ببنية الوعي التناسلي سواء في العصر الجاهلي أو في العصر العبّاسي سعت إلى تطويع النص وتوظيفه لخدمة المجتمع الذي أخذت منه الحروب الكثير جدّا من الرجال حتى في الحروب والغزوات وأيّام العرب في الجاهليّة. وهذا أدعى إلى أن يوجّه الزواج من الأرامل ولهنّ أيتام لكفالتهم بما يتماشى مع روح الإسلام وكفالة اليتيم ورعايته فقد وردت من الآيات عن اليتامى ما يصل إلى (22) آية : الأنعام(152)- الإسراء(34)-الفجر(17)- الضحى(6- 43) ، الماعون (2)، الإنسان(8)- البلد(15)، الكهف(82)، البقرة(177، 215، 83، 220،) الأنفال (41)، الحشر(7)، النساء(، 6، 8، 10، 36، 127.)

أحاديث شقّ الصدر:

قال تعالى في محكم تنزيله في سورة الشرح : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾

جاء في كتب التراث الديني لشرح الصدر أنّه صلّى الله عليه وسلّم في أثناء وجوده في منازل بني سعد روى الرواة حديث شقّ الصدر.

- قال صلى الله عليه وسلّم: " جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو ؟ قال : نعم. فأقبلا يبتدراني فأخذاني فأضجعاني فشقّا بطني فالتمسا فيه شيئا فوجداه، فأخذاه وطرحاه ولا أدري ما هو."
- وفي رواية أخرى : أنّ ابن حليمة أتى يعدو فزعا وجبينه يرشح باكيا ينادي: يا أبت ويا أمّه، الحقا أخي محمّدا فما تلحقانه إلاّ ميّتا، قلت وما قضيّته قال: بينما نحن قيام إذ أتاه رجل فاختطفه من وسطنا وعلا به ذروة الجبل، ونحن ننظر إليه حتّى شقّ صدره إلى عانته، ولا أدري ما فعل به. فانطلقت أنا وأبوه نسعى سعيا فإذا نحن به قاعداً على ذروة الجبل شاخصا ببصره إلى السّماء يبتسم ويضحك، فأقبلت عليه وقبّلته بين عينيه وقلت له: فدتك نفسي ما الذي دهاك؟ قال: خيراً يا أمّاه، بينا أنا الساعة قائم إذ أتاني ثلاثة بيد أحدهم

إبريق فضّة وفي الآخر طست من زمرّدة خضراء فأخذوني وانطلقوا بي إلى ذروة الجبل فأضجعوني على الجبل إضجاعا لطيفا".

- وفي رواية ثالثة عنه صلّى الله عليه وسلّم :" فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهماً لنا، أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بيد أحدهما طست من ذهب مملوءة ثلجا، فأخذاني فشقّا بطني ثمّ استخرجا قلبي فشقّاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، وقيل : هذا حظّ الشيطان منك يا حبيب الله."
- وفي رواية رابعة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: كنت مسترضعا في بني سعد فبينا أنا ذات يوم منتبذاً من أهلي في بطن واد مع أتراب من الصبيان، إذ أتى رهط من ثلاثة معهم طست من ذهب ملآن ثلجا. فأخذوني من بين أصحابي، فخرج أصحابي هربا حتّى أتوا على شفير الوادي، ثمّ أقبلوا على الرهط فقالوا: ما أرَبَكُم إلى هذا الغلام ؟ فإنّه ليس منّا ، هذا ابن سيّد قريش، وهو مرتضع فينا، يتيم ليس له أب، فما يرد عليكم أن يفيدكم قتله؟ وماذا تصيبون من ذلك؟ فإن كنتم لابدّ قاتلوه فاختاروا منّا من شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فإنّه يتيم، فلمّا رأى الصبيان أنّ القوم لا يجيبون جوابا انطلقوا هربا مسرعين إلى الحي يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم. فعمد أحدهم إليّ فأضجعني على

الأرض إضجاعا لطيفا، ثمّ شقّ بطني ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي وأنا أنظر إليه، فلم أجد لذلك مسّا. واستخرج أحشاء بطني ثمّ غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها، ثمّ أعادها مكانها، ثمّ قال الثاني منهم لصاحبه تنحّ عنه فنحّاه عنّي، ثمّ أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي وأنا أنظر إليه فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء ثمّ رمى بها.

- وفي رواية عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم أنّه عند ابتداء الوحي: " جاءني جبريل وميكائيل فأخذني جبريل وألقاني لحلاوة القفا، ثمّ شقّ عن قلبي فاستخرجه ثم استخرج منه ما شاء أن يستخرج ، ثمّ غسله في طست من ماء زمزم، ثمّ أعاده إلى مكانه ثمّ لأمه، ثمّ أكفاني كما يكفى الإناء ثمّ ختم في ظهري.. "

نجد هنا اضطراب الروايات – كما ذكر عبدالحميد جودة السحّار في السيرة النبويّة[1] يقول السحّار:

أعتقد أنّ الله ليس في حاجة إلى إجراء عمليّة جراحيّة ليطهّر نبيّه وليملأه حكمة، وأعتقد أنّ كلّ ما جاء عن شقّ الصدر قد وضع بعد صدر الإسلام عندما أراد الشرّاح شرح الآية الكريمة " ألم نشرح لك صدرك" فقد بعد الشرّاح عن روح القرآن وروحانيته، ولجأوا إلى المادّيات المحسوسة لتفسير

[1] محمد رسول الله والذين معه ج2، ص124.

معان روحيّة سامية، فابتدعوا روايات متنافرة لا يقبلها العقل ولا المنطق ولا الذوق السليم، فمن ذا الذي يستطيع أن يصدّق أنّ ملاكين قد هبطا ليطهّرا قلب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فلا يعرفانه فيقول أحدهما : أهو هو ؟ فيقول الآخر: نعم.

ويواصل السحّار نقده: كيف يريد منّا واضعوا هذه الأحاديث أن نصدّق أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم قال مرّة : جاءني رجلان، وقال مرّة أخرى : جاءني نسران، وقال مرّة ثالثة جاءني رجلان رهط من ثلاثة؟ وكيف يريد واضعوا هذه الأحاديث أن نصدّق أنّ أطفالا صغارا يقولون للملائكة: فإن كنتم لابدّ قاتلوه فاختاروا منّا من شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه.. أهؤلاء صبية يلعبون أم أتباع محمّد صلّى الله عليه وسلّم بعد أن آمنوا به وصدّقوه؟ ومتى وقعت حادثة شقّ البطن أو الصدر؟ أوقعت في أرض هوازن أم وقعت في مكّة قبل البعث؟ وبماذا كان التطهير أبالثلج أم بماء زمزم ؟ إنّ هذه الحادثة لم تقع إلاّ في مخيّلة واضعي هذه الأحاديث..

لقد عمدتُ إلى نقد السحّار الذي يتوافق معه كلّ ذي بصيرة ويربأ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم من أن يقول ما قيل، ولكنّا في إطار تنقية ديننا الحنيف من الشوائب وتعرية ما وضعه الرواة للشرّاح والمفسّرين في العصر العبّاسي ليعضّدوا شروحهم ويعزّزوها رغم سطحيّتها التي لا تلامس جوهر الدين الحنيف فالآية الكريمة "ألم نشرح لك صدرك" لا تستدعي شق الصدر

والبطن وغسلهما مطلقاً فأن يكون قلبك منشرحا في أبسط معانيه أن يزول عنه الانقباض.

الحجاب فُرِض على الإسلام ولم يفرضه الإسلام:

ومن القضايا التي أخذت حيّزا كبيرا وصرفت المسلمين عن قضاياهم وعن القيم السامية والمعاني الروحيّة ، ووجهت الأنظار نحو صراع لا طائل تحته امتدّ إلى خارج أراضي المسلمين ليصبح رمزاً دينيّاً وفرضا على المرأة ومدعاة للتشدّد قضيّة الحجاب.

لمحة تاريخيّة :

(في اليهوديّة):

إنّ من يقرأ كتب العهد القديم وكتب الأناجيل يعلم بغير عناء كبير في البحث أنّ حجاب المرأة كان معروفاً بين العبرانيّين من عهد إبراهيم عليه السلام وظلّ معروفا بينهم في أيّام أنبيائهم جميعاً إلى ما بعد ظهور المسيحيّة، وتكرّرت الإشارة إلى البرقع في غير كتاب من كتب العهد القديم وكتب العهد الجديد.

ففي الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين: عن (رفقة) أنّها رفعت عينيها فرأت إسحاق فنزلت عن الجمل وقالت للعبد: من هذا الرجل الماشي في الحقل للقائي؟ فقال العبد: هو سيّدي، فأخذت البرقع وتغطّت.

والتلفّف أي التنقّب والتحجّب في ذلك الزمان كان هو لبس الزواني، وهذا ما يؤكده العدد (38: 15) فنظر يهوذا وحسبها زانية لأنها غطّت وجهها، فالعدد يؤكد أنّ تغطية الوجه هو علامة أنّ هذه المرأة زانية ، وهذه ليست عادة اليهود بل عادة كنعانيّة.

وفي العهد القديم العدد 5 ص162 آية 18 – ويوقف الكاهن المرأة أمام الرب، ويكشف رأس المرأة.

وفي وقت المشناة (آخر القرن الثاني والقرن الثالث) بدأ اليهود يطلبون من النساء تغطية الشعر ويحرّم من أن تسير مكشوفة الشعر (كيت 7: 6) وأنه لا ينبغي أن ينظر إلى شعر النساء في الشارع ولا يكشف شعرهن، وتعدّي هذه القاعدة من قبل امرأة متزوّجة كان يُعتبر سبباً كافياً للطلاق، وأيضا في القانون الروماني حسب القانون اليهودي. (drghaly.com)

وقد نقل الحبر ماير شلر Mayer Schillerإجماع فقهاء اليهود على حرمة أن تكشف المرأة اليهوديّة المتزوّجة كامل شعرها في الشارع، فقال " يبدو أنّه لا يوجد مصدر تشريعي مقبول يسمح للمرأة المتزوّجة بأن يكون كامل

شعرها مكشوفا في الأماكن العامّة." وقد نقل نفس الإجماع أيضا الحبر جتزل إلسون Getsel Ellinson في قوله " كلّ السلطات العلميّة متفقة بصورة تامّة على أنّ المرأة المتزوّجة ملزمة بألاّ تغادر بيتها بشعر مكشوف. اختلاف الآراء منحصر في أمر تفاصيل هذا التحريم.

وقد عُدّ الحجاب علامة من العلامات التي تتميّز بها المرأة اليهوديّة عن المرأة الوثنيّة حتّى أنّه قد جاء في مدارس سفر العدد 16– 9 أنّ الوثنيّات فقط هنّ من يخرجن برؤوس مكشوفة. وفي ذلك تعبير شديد على إدانة السفور وربطه بالعبادات الوثنيّة المرذولة.[1]

(في المسيحيّة) :

يقول بولس في رسالته كورنتوس الأولى : إنّ النقاب شرف للمرأة، وكانت المرأة عندهم تضع البرقع على وجهها حين تلتقي الغرباء وتخلعه حين تنزوي في الدار. ويقول بولس آمرا النساء : فإذا كانت المرأة لا تغطّي رأسها فليقصّ شعرها، ولكن مادام من العار على المرأة أن يقصّ شعرها أو يحلق فلتغطّي رأسها (1 كونتوس 11: 6).

[1] مبادرة البحث العلمي لمقارنة الأديان – الحجاب شريعة الله في الإسلام واليهوديّة والنصرانيّة www.aricr.org

ويقول مفسّر الموسوعة الكنسيّة للعهد الجديد شرحا لكل آية الجزء 4 ص 80: شعر المرأة زينة ومجد لها ولكن أمام الله ليس لها مجد، وإنّ المرأة عندما تكشف رأسها فهي مثل التي تحلق شعرها. فكما يرتدي القائد قديما تاجاً ولكنّه عندما يقف أمام الملك يخلعه احتراما للملك، هكذا الإنجيل يشير إلى أنّ شعر المرأة تاجها فعندما تدخل أمام ملك الملوك في عرشه أي الكنيسة فإنها تغطّي تاجها احتراما لملك الملوك .

(في عصر ما قبل الإسلام):

جاء في السيرة النبويّة (محمّد رسول الله والذين معه)[1] أنّه حين كبرت السيدة آمنة بنت وهب وتجاوزت طفولتها أخذها والدها مع هالة بنت وهيب إلى دار الندوة " وتقدّمت آمنة من المكلّف بمراسيم حجب فتيات مكّة، فشقّ قميصها ثمّ حجب به وجهها، فكان ذلك إيذانا بأنّ آمنة قد حجبت ولن تقع عليها بعد اليوم إلا عيون المحارم من أهلها...وكذلك هالة بنت وهيب.. ثم عادت آمنة وهالة إلى دور بني زهرة وقد ضرب عليهما الحجاب وحيل بينهما وبين شباب الأسرة وبين شباب الأسر القرشيّة التي كانت تتبادل الزيارات مع بني زهرة.

[1] ج1- ص18-19

(في الإسلام)

الآيات المرتبطة بالحجاب في سورتي النور والأحزاب وتشتمل على آيات:

58، 31، 30، 60، 59 من سورة النور.

33، 32، 53، 55،54، 59 من سورة الأحزاب..

جاء في سورة النور 30- 31:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

من سورة النور 58- 60:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحُۢ بَعْدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ

لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

من سورة الأحزاب 32- 33:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ۚ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

من سورة الأحزاب 53- 55:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ

وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۚ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

من سورة الأحزاب 59:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ﴾

فهل في كلّ هذه الآيات فرض للحجاب على نساء المسلمين أو تمّت الإشارة إليه أو تمّ تشريعه وتقنينه؟

- هل في كلّ هذه الآيات حديث عن الرأس أو الشعر؟
- آية الخمار تأمر بتغطية الصدر..
- آية الحجاب موجّهة لأمّهات المؤمنين خاصّة ولا صلة لها باللباس بل بالساتر بين السائل ونساء النبي.
- يرى الكاتب والمفكر سيّد القمني في مقالة له : أنّ الآيات القرآنيّة أمرت المرأة الحرّة في زمن البعثة بتغطية صدرها كعلامة تميّز المرأة الحرّة عن الإماء فلا يتعرّضن للتحرّش أو الأذى، واستشهد على ذلك بحادثة ضرب عمر بن الخطاب لإحدى الجواري لأنّها أخفت صدرها بخمار.

- والكاتب المفكّر جمال البنّا وهو الشقيق الأصغر لمؤسّس حركة الأخوان المسلمين حسن البنا، يقول إنه لا يوجد في القرآن ولا في السنّة ما يعرف اليوم بالحجاب مؤكدا على أنّ الخمار الذي كانت ترتديه النساء في ذلك الوقت هو زيّ تقليدي وعادة اجتماعيّة، وما جاء في القرآن هو أمر بتغطية فتحة الصدر وليس فرض الخمار.. ويستشهد البنا على ذلك بحديث ورد في صحيح البخاري مفاده أنّ النساء كنّ يتوضأن مع الرجال في حوض واحد في عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلّم والخليفة أبي بكر وجزء من عهد الخليفة عمر، وممّا يترتّب على هذا بكشف الوجه والشعر والذراعين من أجل الوضوء. ويؤكّد البنّا أنّ الحجاب أبدا لم يكن عقيدة أو شريعة بل مجرّد عادات، إنّه موجود من قبل الإسلام بألفي عام، نراه في كتاب حمورابي وفي أثينا في عهد افلاطون وأرسطو حيث كان ينظر إلى المرأة على أنّها من الحريم، كما ركّزت اليهوديّة على الحجاب بشكل مكثّف وأيّدته المسيحيّة أيضا.[1]

[1] حوار مع العربيّة نت www.alarabiya.net

- والدكتور أحمد صبحي منصور يتفق على أنّ ضرب الخُمُر على الجيوب يقصد به تغطية الصدر،[1] ويضيف إلى ذلك أنّ إدناء الجلباب الوارد في القرآن يعني تغطية الساقين.[2]
- أمّا المستشار محمّد سعيد العشماوي في كتابه[3] فيذهب مع الرأي القائل بأنّ آية الخمار تأمر بتغطية الصدر، أمّا عن آية الحجاب فيقول إنّها موجّهة لأمّهات المؤمنين خاصّة، والحجاب المقصود ليس ملبسا وإنما ساترا يفصل بين زوجات الرسول وبين من يسألهنّ متاعا بحيث لا يرى كلّ منهما الآخر. ويضيف إلى ذلك أنّ علّة إدناء الجلابيب المذكورة في سورة الأحزاب 33– 59 – هي للتمييز بين الحرائر والإماء مستشهداً كذلك بحادثة ضرب عمر بن الخطاب لجارية أخفت صدرها. ويقول العشماوي: إنّ هذه العلّة قد انتفت لعدم وجود إماء وجواري في العصر الحالي، وفقا لقاعدة في علم أصول الفقه أنّ الحكم يدور مع العلّة وجودا وعدما، فإن وجد الحكم وجدت العلّة.

أمّا في الحديث فقد جاء في صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أنّ أزواج النبي صلى الله عليه وسلّم كنّ يخرجن بالليل إذا تبرّزن إلى المناصع (أماكن

[1] مشكلة الإسلام في السلفيّة 2-2
[2] فتوى أحمد صبحي حول إدناء الجلباب.
[3] حقيقة الحجاب وحجّيّة الحديث.

معروفة من ناحية البقيع) فكان عمر يقول للنبي صلى الله عليه وسلم : احجب نساءك، فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة فناداها عمر: ألا قد عرفناك يا سوْدة، حرصا على أن ينزل الحجاب فأنزل الله آية الحجاب "[1]، وواضح أن الحجاب المعروف الآن لا يغطي الطول، بل أن يجعل النبي لهنّ ساترا حاجبا لهنّ عن أعين الناس.. والآية التي نزلت تفيد ذلك.

واللباس في القرآن الكريم ورد في سورة الأعراف آية 26: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ ﴾ فالآية تخاطب بني آدم عامّة وتدقّق على لباس التقوى فذلك خير، وفي ذلك إشارة إلى أنّ الحجاب الداخلي خير من الخارجي، مع أنّ الخارجي لمداراة السوءة الظاهرة أمّا الداخلى فلحجب السوءات الكثيرة وحفظ النفس ولجمها عن الشهوات والانحراف إلى النزوات وغضّ البصر وحفظ الفروج.

نخلص من كلّ ذلك إلى أنّ الحجاب المعروف الآن لم يأت به الشرع وإنّما جاءت كلمة حجاب فيما يخص نساء النبي صلى الله عليه وسلم ليكون ساتراً بينهن وبين من يتحدّث إليهنّ، أمّا تغطية الصدر فقد تمّ التوجيه بها

[1] رواه البخاري (146) ومسلم (2170).

لكي يعرفن فلا يؤذين، ولم يرد نصّا لا في الحديث ولا في القرآن جاء فيه غطاء الرأس أو غطاء الشعر أو أنّه عورة..ومع كلّ ذلك فقضيّة الحجاب التي أخذت كما قلنا حيّزا كبيرا هي ليست بفرض بل قضيّة شخصيّة وقد تكون اجتماعية ولكنها ليست بحال من ما يسمّى بالزيّ الإسلامي أو الشرعي كما يذهب كثيرون.

السّهو عن الصّلاة ليس تأخيرها:

قال جلّ شأنه في سورة الماعون ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾

في مطلع الدرجات الأولى للتلقّي والمراحل الأوّلية في المدارس والمعاهد العلميّة تلقّينا عن أساتذتنا الأجلاّء تفسير الآيات الكريمة في سورة الماعون، وحذّرونا من تأخير أوقات الصلاة لأنّ الويل ينتظرنا من الله سبحانه وتعالى، وهذا التهديد أخذ منّا كلّ مأخذ..وأساتذتنا نقلوا لنا ذلك عن أساتذتهم نقلا عن كتب التفاسير المرجعيّة.

عدت إليها فوجدتهم صادقين في النقل، ففي تفسير ابن كثير يقول : فويل للمصلّين قال ابن عبّاس وغيره يعني المنافقين الذين يصلون في العلانية

ولا يصلون في السر، ولهذا قال : "للمصلّين" الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها ثم هم عنها ساهون إمّا عن فعلها بالكليّة كما قال ابن عبّاس وإمّا عن فعلها في الوقت المقدّر لها شرعا فيخرجها عن وقتها بالكلّية كما قال مسروق وأبوالضحى.وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال " عن صلاتهم ساهون " ولم يقل في صلاتهم ساهون.

وإمّا عن وقتها الأوّل فيؤخرونها إلى آخره دائما أو غالبا، وإمّا عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإمّا عن الخشوع فيها والتدبّر لمعانيها فاللفظ يشمل ذلك كلّه. وثبت في الصّحيحين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلاّ قليلا" فهذا آخر صلاة العصر التي هي الوسطى كما ثبت به النص إلى آخر وقت كراهة، ثم قام إليها فنقرها نقر الضراب لم يطمئن ولا خشع فيها أيضا، ولهذا قال " لا يذكر الله فيها إلا قليلا" ولعلّه إنّما حمله على القيام إليها مراءاة الناس لا ابتغاء وجه الله فهو كما إذا لم يصل بالكليّة وهو خادعهم قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا.

وقال ابن جرير أيضا حدّثني زكريّا بن أبان المصري حدثنا عمرو بن طارق حدثنا عكرمة بن إبراهيم حدثني عبد الملك بن عمير عن مصعب بن سعد

عن سعد بن أبي وقّاص قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن " الذين هم عن صلاتهم ساهون" قال " هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها" يحتمل تركها بالكليّة ويحتمل صلاتها بعد وقتها شرعا وتأخيرها عن أوّل الوقت. وكذا رواه الحافظ وأبويعلى عن شيبان عن فروخ عن عكرمة بن إبراهيم، ثمّ رواه عن أبي الربيع عن عاصم عن مصعب عن أبيه موقوفا : سهوا عنها حتى ضاع الوقت. وهذا أصحّ إسنادا، وقد ضعّف البيهقي رفعه وصحّح وقفه وكذلك الحاكم.

وتساءلت وأنا أتأمّل وأتدبّر آي الذكر الحكيم في سورة الماعون: هل رواة الحديث جاءوا بحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم لتدعيم شرحهم الشكلي للنص؟ وهل الله سبحانه وتعالى يتوعّد بالويل – الذي قيل إنّه وادٍ في جهنّم تستعيذ منه كلّ يوم اربعمائة مرّة– الذي يؤخر الصلاة عن وقتها، وقد كتب الله على نفسه الرّحمة ؟ .

أين مناخ النص وعمّ يتحدّث؟ فالدين المعاملة والذي يكذّب بالدين هو الذي يدعّ اليتيم، ويبعده عن ماله ويقسو عليه، وهو الذي لا يحضّ على طعام المسكين، فويل له حتى لو كان يصلّي الصلاة في أوقاتها، لقد سها عن الحكمة من الصلاة وعن معناها ودلالاتها وهي أساس الدين ، إنّه يرائي بها أمام الناس ولكنّه يمنع الماعون.

فالصلاة تعني التواصل بينك وبين الله، وهي على امتداد اليوم خمس صلوات ممّا يعني أنّك تتواصل مع خلق الله، والله بداخلك على الدوام فلا يمكن أن تصلّي الفجر ثم تذهب لتغش في الكيل والميزان، أو تصلّي الظهر وتقطّب وجهك للآخر، أو تصلّي العصر وتغتاب مع أصدقائك الآخرين أو المغرب والعشاء ثم تفعل الفاحشة والمنكر، فالله جلّ شأنه لا يعتدّ بالشكل وإنّما بالجوهر..

وحدث لي أن كنت يوما بالمستشفى إثر جفاف حاد وعلى الممرّض أن يسرع لتركيب تغذية بالوريد، تركني ليلحق صلاة المغرب في وقتها، وأحد الأطبّاء ترك ابني على سرير الكشف وتباطأ لأنّه كان يتلو آيات بيّنات في المصحف حتى أكمل السورة ثمّ أقدم يتساءل : ممّ يشكو ...؟

ما أرمي إليه إنّه إذا كانت الصلاة عماد الدين، والدين المعاملة فإنّ المعادلة تقتضي أنّ الصلاة هي التوجه إلى الله والمعاملة مع خلق الله، ولكنّ الاهتمام بالشكل الخارجي للعبادة هو ما أوصلنا إلى هذه الحال من التخلّف.. ومن هنا جاءت الآيات : أرأيت الذي يكذّب بالدين فهو الذي لا يعي ما ترمي إليه الصلاة ولا يعي جوهرها من تعامل مع الآخر من ابتسام في وجه الآخر من صدق وأمانة وخلق كريم من صدقة وزكاة ومن كفالة ليتيم ومن إطعام لمسكين فهو وإن كان يؤدّي الصلاة في ميقاتها إنما هو يرائي بها

أمام الناس ويمنع الماعون عن المحتاج. " فأمّا اليتيم فلا تقهر وأمّا السائل فلا تنهر".

كلّ ذلك يوضّح لنا معاني الصلاة المرتبطة بالإيمان المرتبط بالعمل الصالح والإنفاق ممّا رزقك الله..والزكاة والصدقات فقد جاءت مقترنة في كلّ الآيات " **الذين آمنوا وعملوا الصالحات**" فالذي لا يعمل الصالحات التي وردت في السورة فإنّه ساهٍ عن صلاته، ولذا استحقّ الويل.. ولا صلة لمناخ الآية وما تتحدّث عنه بالذي يؤخر الصلاة عن وقتها.

ومن معاني ودلالات الصلاة التي ينبغي أن لا نغفل عنها أنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر(45 العنكبوت) ومن لم تنهه صلاته عن ذلك لم يزد بصلاته إلاّ بعدا.. وأنّها تجعلك تنفق مما رزقك الله **(الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون)** 3 البقرة، وأن تصلح وأن تخشع وأن تحافظ عليها لأنه بمحافظتك عليها تقوم بعمل الصالحات التي ارتبطت بالإيمان، كما ربط سبحانه بين الصلاة والزكاة.

فالتفسير الشكلي والاستدلال بأحاديث تؤيّد هذا التفسير الشكلي هو ما يدعونا إلى إعادة النظر والتأمّل والتدبّر والوصول إلى جوهر الآيات ودلالاتها وأبعادها.فالعمق الذي تحمله هذه الآيات أبلغ من التفسير الشكلي المدرسي الذي تستوعبه البنية التناسليّة. والله أعلم وهومن وراء القصد.

عقوبة السارق القطع وليس البتر:

على امتداد التفسير الذي اعتمدته بنية الوعي السائدة لآيات القرآن العظيم الذي جاء رحمة للعالمين، ذهب المفسّرون إلى أنّ السارق تقطع يده أي تبتر، دون النظر إلى الحكمة من وراء الآية أو تفسيرها وفق روح القرآن وسماحة الدين وخلق الإسلام، أوحتى التدقيق اللغوي للقطع، وحشد علماء سلطان بني العبّاس من الأحاديث عدداً هائلا في حدّ السرقة صحّحوا أكثرها رغم تعارض بعضها، فتارة رواية : أنه لا قطع بعد السرقة الثانية، وتارة قطع اليد فإن عاد فقطع الرجل فإن عاد فقطع اليد فإن عاد فقطع الرجل فإن عاد فالقتل، وقراءة ابن مسعود للآية " والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم" حيث قيل إنها وإن شذّت فهي جارية مجرى خبر الواحد في وجوب العمل بها، ورواية : لا تقطع الأيدي في السفر، ورواية : إذا سرق السارق فاقطعوا يمينه. وأحاديث عن حدّ السرقة في المجن الذي ثمنه ثلاثة دراهم، وحديث عن عائشة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع يد السارق في ربع دينار فصاعدا، ورواية إذا سرق المملوك فبعه، وحديث أقيموا على أرقائكم الحد . والحديث الذي صحّحوه عن جابر أنه جيء بسارق إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: اقتلوه، فقالوا يارسول الله إنّما سرق فقال اقطعوه، قال فقطع، ثمّ جيء به الثانية فقال اقتلوه فقالوا له يا رسول الله إنما سرق فقال اقطعوه قال فقطع، ثمّ جيء به الثالثة فقال اقتلوه فقالوا يارسول الله إنما

سرق، قال اقطعوه، فأتي به الخامسة فقال اقتلوه ، قال جابر فانطلقنا به فقتلناه ثم اجتررناه فألقيناه في بئر ورمينا عليه الحجارة. ويروي البخاري في صحيحه باب الحدود رقم (6401) حدثنا عمر بن حفص... عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده" بينما بشرح صحيح البخاري الحديث " ليس على خائن ولا مختلس ولا منتهب قطع" رواه الزبير عن جابر ورفعه وصرّح بن جريج في رواية النسائي.

والتساؤل المشروع: لم هذه الكثرة من الأحاديث لإثبات حد السرقة لآية واحدة تمّ تفسيرها وسعوا إلى تعزيز هذا التفسير بحشد الأحاديث. وهل يحكم الرسول صلى الله عليه وسلم دون أن يتحقّق؟ ودون أن يسأل عن المقدار ويتم عرض السارق أمامه خمس مرّات، وكيف يسرق السارق بعد بتر يديه ورجليه ؟ أبفمه مثلا ؟.وهل الكثرة ليأخذ كلّ إمام من الأئمّة ماشاء له.

قال تعالى في سورة المائدة (38– 39) ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

أوّلا: لقد اجتزأ المفسّرون الآية الأولى دون النظر إلى الآية الثانية التي لن تكون لها دلالة إذا كان القطع بتراً، ودون النظر إلى أنّ الله عزيز حكيم وأنّه غفور رحيم.

ثانيا: ذهب المفسّرون إلى القطع الفيزيائي لليد دون النظر إلى أنّ القطع يختلف عن البتر لفظا ودلالة كما في قوله تعالى " إنّ شانئك هو الأبتر".

ثالثا: دون النظر إلى أنّ أيديهما تختلف عن يديْهما، فلو كان القطع بترا لوجب قطع الأيادي الأربع لهما.

رابعا: دون التدقيق في المعنى اللغوي للقطع التي وردت في عدد من آيات الذكر الحكيم:

فيقْطع بالفتحة والسكون (وليس بالضمّة والفتحة وتشديد الطاء) تعني يمنع .. ففي الآية : "ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل " أي يمنعون.

وفي سورة النمل 32 ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢ ﴾ وقطع الأمر هنا هو إصدار أمر نهائي ممنوع تغييره.

وقطع الدابر: استخدمها القرآن الكريم أكثر من مرّة :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥ ﴾ 45 الأنعام.

﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢ ﴾ 72 الأعراف.

فقطع الدّابر هو منعهم من العودة أو الرجوع لأنّهم أهلكوا.

وقطع السبيل وليس تقطيع السبيل..

وقطع اليد (فاقطعوا أيديهما) هو منعها أو نهيها أن تمتد فتسرق من جديد بالسجن أو الحبس أو النفي أو العزل، وتكملة الآية تدلّ على التوبة والمغفرة والرحمة.

وحادثة السرقة التي ذكرت في القرآن وصدور الحكم بها بوجود وحضور نبيّ الله يوسف ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥ ﴾ 75 يوسف.

لغويّا في القرآن الكريم لم تأتِ كلمة (قطْع) بفتح القاف وتسكين الطاء وفعلها الماضي قَطَعَ ومشتقاتها لتدلّ على أيّ فعل فيزيائي يعني التقطيع أو الفصل ولكن دائما ترد كصفة منع ونهي.. فالأمر المقطوع ليس هو الأمر المقطّع.. والوصل المقطوع ليس هو الوصل المقطّع .. والدّابر المقطوع ليس هو الدّابر المقطّع.. واليدان المقطوعتان ليستا هما اليدان المقطّعتان.

أمّا الفعل (قطّع) بتشديد الطاء وفتح الحروف الثلاثة واشتقاقاته (تقطيع) و(مقطّع) وغيرها فكلّها تدلّ على عمل فيزيائي ينتج عنه تقطيع أو تخديش أو تمزيق أو فصل شيء عن شيء آخر:

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ 166 البقرة، تمزّقت وانفصلت وليس منعت.

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ 160 الأعراف، أي فرّقناهم أو مزّقناهم أوفصلناهم إلى اثنتي عشرة قطعة، وليس منعناهم.

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ 168 الأعراف. أي فرّقناهم أو مزّقناهم.

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ 31 يوسف. في هذه الآية عمليّة التقطيع بوجود المقطّع (النسوة) ووجود الآلة (السكّين) ومع ذلك لم يتم فصل اليد وبترها كاملة، ولكنَ حصل تمزيقها أو تخديشها.

﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ 93 الأنبياء. وهنا مزّقوا أو فصلوا أمرهم بينهم وتفرّقوا فتقطّع أمرهم إلى قطع .

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ ﴾ 19 الحج.

﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ ٤ ﴾ 4 الرعد **قطع مقطّعة.**

﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥ ﴾ 15 محمد. **أصبحت قطعا.**

﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ ﴾ 22 محمد. **الأرحام تُقطّع إلى قطع متناثرة متفرّقة ولا تُقطع أي تُمنع. لم يرد في القرآن (قطعُ الأرحام) ولكن ورد (تقطيعُ الأرحام).**

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٢٤ ﴾ 142 الأعراف.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٩ ﴾ 49 الشعراء.

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ ﴾ 33 المائدة.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ٧١ ﴾ 71 طه.

عندما نقول: يداه مقطوعتان أي يداه ممنوعتان فلا تصلان.

وعندما نقول: يداه مقطّعتان أي تمّ تقطيعُها إلى قطعتين أو أكثر.. فالقطع يختلف عن التقطيع ويعني النهي أو الانتهاء.[1]

فكلمة قطْع تدلّ على توقّف الأمر ودفعه بصورة وسط نحو جهة معيّنة أي بمعنى المنع والانتهاء والإبرام.ونقول : نصّ قطعي الدلالة أي لا يحتمل إلاّ وجهة واحدة من المعنى. وكقولنا : اقطع يد فلان عنّي – أي أكفه ولا تجعله يلحف في السؤال. أو كفّ أذاه عنّي. ونقول في العاميّة : اقطع وجهك عنّي – أي انصرف عنّي ولا تُرِني وجهك. والنسوة اللائي رأين يوسف لم يبترن أيديهنّ بل قطّعنها بالسكّين حيث أصابتهنّ بجروح.

لذا فإنّ كلمة (قطع) كما ذهب عدد من المفكرين والمتأمّلين والمدقّقين في هذا العصر لا تدلّ على عمليّة (البتر) لليد، وإنّما تدلّ على عمليّة المنع والتعطيل والتوقيف لفاعليّتها، والعقوبة موجّهة إلى نفس الإنسان لا إلى يده الجارحة. فتكون عقوبة هذا الإنسان بإيجاد صورة رادعة زاجرة مؤلمة نفسيّاً.

وكلمة قطع في المعجم المحيط لابن عباد (اقطع لسانه) أي كفّ كلامه، وأقطع الرّجل: لا يقدر على الكلام وانقطعت حجّته. وفي معجم تاج العروس للزبيدي : قطعه كمنعه، وقطع السبيل على وجهين أحدهما يراد به السير

[1] زياد علي (www.muslims- however. Blogspot.com)

والسلوك والثاني يراد به الغصب من المارّة والسّالكين، وفي المجاز: قطع لسانه قطعا : أسكته بإحسانه إليه، ومنه : اقطعوا عنّي لسانه قاله للسائل، أي أرضوه حتّى يسكت.

ثمّ إنّه جاءت كلمة (أيديهما) وهي تعني الجمع ولا تعني التثنية (يديهما) ولو كان المعنى هو البتر لوجب بتر أيديهما الأربعة وليس يديهما. يقول جلّ شأنه : نكالاً، وقد تمّ تفسيرها : عذاباً، وتمّ إهمال المعنى السياقي الآخر وهو القيد حيث إنّ معنى النكال هو قيد الدّابّة. والنكال في لسان العرب من نَكَل عنه ينكل: نكص، ونكله عن الشيء صرفه عنه، وأنكلت الرجل عن حاجته إنكالا: إذا دفعته عنها والنِّكْل بالكسر القيد الشديد من أيّ شيء كان، وفي التنزيل العزيز " إنّ لدينا أنكالا وجحيما" قيل هي قيود من نار. وسمّيت القيود أنكالا لأنها ينكل بها أي يمنع، والنكل : القيد. قال ابن الأثير: النكل بالتحريك من التنكيل وهو المنع والتنحية عمّا يريد، ويقال: أنكلت الرجل عن حاجته : إذا دفعته عنها .

إذن فالمعنى للقطع هو القيد والسجن، ثمّ بعد ذلك يأتي التخفيف من الحكم لمن تاب منهم ففهم عندها معنى توبة السارق إذ لو بترنا يده فلا معنى للتوبة والله غفور رحيم.

وما قصص القطع بمعنى البتر إلاّ كمثل آلاف الأحاديث التي نسبت زوراً وبهتانا إلى رسول الرحمة ولا أقلّها حديث المرأة المخزوميّة التي ادّعوا أنّها سرقت، فكيف لحرّة من نساء قريش أن تمدّ يدها لتسرق وسط أناس عرف عنهم الكرم.[1]جاء فيه عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت " كانت امرأة مخزوميّة تستعير المتاع وتجحده فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تقطع يدها"[2] .

وفي رواية أخرى عن عائشة رضي الله عنها أنّ قريشا أهمّهم شأن المرأة المخزوميّة التي سرقت فقالوا: ومن يكلّم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حِبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلّمه أسامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتشفع في حدّ من حدود الله؟" ثم قام فاختطب ثمّ قال " إنّما أهلك الذين قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"[3].

وكيف يوافق النصّ القرآني ما كان سائدا في الجاهليّة حيث كانوا يبترون يد السّارق، فقد ورد في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم (محمّد رسول

[1]سالم الاسلامبولي www.ahl- alguran.com
[2]مسلم (1316)
[3]رواه البخاري 3475 ، ومسلم 1688

الله والذين معه) لعبد الحميد جودة السحّار[1] " انطلق أبو لهب ورفاقه إلى الكعبة ودخلوا في جوفها وسرقوا غزالة من الغزالتين (الذهبيّتين) مستترين بالليل، ثمّ هرعوا إلى القافلة التي أقبلت من الشام واشتروا بالغزالة خمرا..وتنفّس الصبح وخرج المكّيّون ليطوفوا بالحرم، وفتح كاهن هبل بابها للراغبين في تقديم القرابين للإله أو في الاستقسام بالأزلام، وحانت من الكاهن التفاتة فلم يجد إلاّ غزالة واحدة معلّقة فندّت منه صيحة إنكار، ثمّ خرج مفزوعا يعلن على الملأ النبأ الأليم. وقرع الخبر أذني عبدالله بن جدعان وبلغ مسامع قريش، فأحسّ الناس خوفا يقبض أفئدتهم وأصبحوا يخشون أن تنزل بهم نازلة من السماء، فانتشروا في مكّة يبحثون عن غزالة الذهب التي سرقت من البيت المقدّس، وكان عبدالله بن جدعان أشدّهم طلبا لها فقد بات يهاب المجهول بعد أن كان أكثر أهل مكّة شروراً وأقساهم قلبا..

ووعد عبدالله بن جدعان بجائزة لمن يرشد إلى من سرق الغزالة، وإذا بعقد الألسن تحل، وإذا بأصابع الاتهام تشير إلى أبي لهب وصحبه، فذهب عبدالله بن جدعان إلى رجال القافلة التي وردت من الشام واستردّ منهم الغزالة، ثمّ انطلق في أثر أبي لهب ورفاقه المجّان. وألقي القبض على بعض صحاب أبي لهب وقطعت أيديهم جزاء وفاقا على ما ارتكبوه في

[1] ج2، ص43

الحرم، وفرّ بعضهم إلى أخواله من خزاعة . وجاء عبدالله بن جدعان ورجال من قريش ليقبضوا على أبي لهب وينفذوا الحكم فيه، ولكنّ خزاعة منعت عنه قريش، فراح الرجال يعيّرونه صائحين: سارق غزالة الكعبة .. سارق غزالة الكعبة.

منعت خزاعة عن أبي لهب قريشا ونفّذ حكم القطع في فريق دون فريق ولم يكن ذلك بدعاً فقد كان الشريف الذي يسرق لا يقطع بينما تقطع يد السارق إن لم يكن له ولي ولا نصير..وخشي عبدالمطلب أن تسرق الغزالتان مرة أخرى فجاء بهما وضربهما في باب الكعبة. فكان أوّل ذهب حلّيت به ."

هذا ما كان في الجاهليّة، وفي العهد القديم التثنية 25(: 11– 12) وردت عقوبة قطع اليد ليس في السارق بل في حقّ المرأة التي بلا حياء " إذا تخاصم رجلان، رجل وأخوه وتقدّمت امرأة أحدهما لكي تخلّص رجلها من يد ضاربه ومدّت يدها وأمسكت عورته فاقطع يدها، ولا تشفق عينك"

وقد أشار السيّد المسيح في حديثه عن العثرة إلى هذا القانون بمجاز أن تكون حكما على نفسك " فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها والقها عنك لأنّه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كلّه في جهنّم، وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كلّه في جهنّم " متى 5:(29– 30).

من كلّ ما سبق يتضح أنّ علماء سلطان دولة بني العبّاس قد أقرّوا القطع بمعنى البتر دون مراعاة لكلّ ما بسطنا من معان لغويّة من المعاجم ومن استخدام المفردة في النص القرآني والتي تثبت أنّ القطع غير البتر وأنّ أيديهما غير يديهما، وأن النكال بمعنى القيد والمنع، وأنّ باب التوبة مفتوح للسارق، وأنّ الأحاديث الكثيرة جدّاً حول الموضوع بالاختلالات التي بها ورواياتها المتعدّدة إنما وضعت للتدليل على التفسير الشكلي للبنية السائدة للآية الكريمة ليكونوا أكثر إقناعا، وظلّ هذا التراث يتم تناقله على أنّه من الثوابت ولا خلاف حوله.وأرى أنّه آن الأوان لقراءة جديدة للنصوص الدينيّة لا أن نجترّ أرتالا من الكلمات والأحكام دون تثبّت وتأمّل وتدبّر.والله أعلم وهو من وراء القصد.

توظيف الدّين لصالح العرف في مدّة حمل الجنين

قال تعالى في سورة البقرة آية 233: ﴿ ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ وفي سورة الأحقاف آية 15: ﴿ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ ﴿١٥﴾ ﴾ .

ورغم وضوح الآية أنّ مدّة الحمل أقلّها ستّة أشهر والدخول في السابع، وما هو ثابت على العموم اكتماله في تسعة أشهر.. لنرى كيف أنّ بنية العقل

التناسلي التي يشكّل مفهوم الشرف عندها هو شرف المرأة وعضوها التناسلي، وينحصر في شرف الأسرة الذي يمكن أن تحدث بسببه المصادمات الدمويّة وتنشأ الحروب لأنه يحمل شرف العائلة بل القبيلة بأسرها.. كيف ذهب المفسّرون ليبرّروا ويداروا ويحافظوا على العرف السائد ويحمون الشرف حتى لو ارتكبت المرأة الخطيئة وأتت بالفاحشة وحملت بعد وفاة زوجها بعامين أو ثلاثة أو حتى سبعة أعوام. وهو ما يقال عنه في العرف أنّ الطفل (بايت) أو (راقد) خشية التشهير أو العار.

" ففي 19 جمادى الآخرة عام 1364هـ ألحق القاضي مصطفى عبدالقادر العلوي القاضي بالمحكمة الشرعيّة بمكّة المكرّمة نسب طفل ولدته أمّه بعد موت زوجها بخمس سنين، وحكم لأختها خديجة بلحوق طفلها بزوجها الذي طلّقها قبل أربع سنين"[1]

ولم يصدر القاضي هذا الحكم من عنده بل استنادا إلى أقوال وفتاوى الفقهاء في أكثر مدّة لحمل الجنين الذي يمكن أن يمتد لأكثر من تسعة أشهر، وتتلخّص هذه الأقوال في:

[1]انظر خلق الإنسان بين الطب والقرآن للباز ص450 نقلا عن دراسة فقهيّة طبية بموقع التوحيد للدكتور عبدالرشيد بن محمد أمين بن قاسم وهو أمين مصادر التعلم بتعليم مكة المكرمة www.eltawhed.com

- إنّ أقصى مدّة للحمل سنة واحدة لا أكثر، وبه قال محمد عبدالحكم واختاره ابن رشد[1]
- كما أنّ الحمل قد يستمرّ إلى سنتين وهو مذهب الحنفيّة.[2]
- وأنّه قد يستمرّ ثلاث سنين وهو قول الليث بن سعد.[3]
- وأنّ أقصى الحمل أربع سنين وهو مذهب الشافعيّة والحنابلة، وأشهر القولين عند المالكيّة.[4]
- وأنّ أكثر الحمل خمس سنين وهي رواية عن مالك.[5]
- وأنّ أقصى الحمل ستّ سنين وهي تروى عن مالك والزهري.[6]
- وأن أقصى الحمل سبع سنين وبه قال ربيعة وهي رواية عن الزهري ومالك.[7]

وجاء عن الوليد بن مسلم قال: قلت لمالك بن أنس إنّي حدّثت عن عائشة أنّها قالت : " لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قدر ظلّ المغزل" فقال : سبحان الله من يقول هذا؟ هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان امرأة صدق

[1]انظر تفسير القرطبي 4: 287، والفقه الإسلامي للزحيلي 7: 677
[2]انظر حاشية ابن عابدين 5: 54 ، وشرح فتح القدير لابن همام 4: 362
[3]انظر المغني لابن قدامة 7: 477، وشرح فتح القدير لابن همام 4: 362
[4]انظر الأم للشافعي 5: 212، روضة الطالبين للنووي 6: 39، والإنصاف للمرداوي 5: 212
[5]انظر الكافي لابن عبد البر ص293
[6]انظر مختصر اختلاف العلماء للحصاص 2: 495، وتفسير القرطبي 9: 287
[7]مختصر اختلاف العلماء للحصاص 2: 495 ، وتفسير القرطبي 9: 287

وزوجها رجل صدق وحملت ثلاثة أبطن في اثنتي عشرة سنة تحمل في كلّ بطن أربع سنين.[1]

وما روي عن عمر أنّه رُفع إليه امرأة غاب عنها زوجها سنتين فجاء وهي حبلى فهمّ عمر برجمها، فقال معاذ بن جبل: يا أمير المؤمنين إن يك السبيل لك عليها فلا سبيل لك على ما في بطنها، فتركها عمر حتى ولدت غلاما – قد نبتت ثناياه – فعرف زوجها شبهه، فقال عمر: عجز النساء أن يلدن مثل معاذ، لولا معاذ هلك عمر"[2] وفي رواية : فقال له علي: ليس لك ذلك، قال تعالى " والوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين" وقال " وحمله وفصاله ثلاثون شهرا" فحولان وستّة أشهر ثلاثون شهرا، لا رجم عليها، فخلّى عمر سبيلها.[3]

أمّا الأخبار الأخرى التي تناقلتها المصادر فمتعدّدة وقد جاء فيها الحمل الزائد عن تسعة أشهر لتبرير وتمرير وحفظ شرف الأسر والقبائل منها:

- أن نساء بني عجلان ولدن لثلاثين شهرا.
- وأنّ مولاة لعمر بن عبدالعزيز حملت ثلاث سنين.
- وأنّ الإمام مالك ولد لثلاثة أعوام.

[1] نصب الراية للزيلعي 3: 264، والتلخيص الحبير لابن حجر 3: 235
[2] أخرجه البيهقي في سننه الكبرى 7: 443، برقم 15335، وعبدالرازق في المصنّف 7: 354، برقم 13454.
[3] فتوى رقم 23882 fatwa.islamweb.net

- وأنّ هرم بن حيّان والضحّاك بن مزاحم حمل بكلّ منهما سنتين.

وما روي عن مالك أنّه قال : بلغني عن امرأة حملت سبع سنين[1]. وخبر ابن الصياد الذي ثبت أنه ولد لسنة ففي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: لأن أحلف عشراً مراراً أنّ ابن صائد هو الدجّال أحبّ إليّ من أن أحلف مرّة واحدة أنه ليس به. قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثني إلى أمّه سلها كم حملت؟ قال: فأتيتها فسألتها فقالت: حملت به اثني عشر شهرا، قال : ثمّ أرسلني إليها فقال: سلها عن صيحته حين وقع ؟ قال فرجعت إليها فسألتها فقالت : صاح صيحة الصبيّ ابن شهر"[2]

ولم يعترض على كلّ ذلك إلا ابن حزم الذي قال:" وكلّ هذه أخبار مكذوبة راجعة إلى من لا يصدّق ولا يعرف من هو؟ ولا يجوز الحكم في دين الله تعالى بمثل هذا" [3]وقد علّل الأحاديث السابقة بالضعف والانقطاع والجهالة. ولكن من يستمع إلى هذا وقد حدّدت البنية اتجاها آخر، وحشدت من الكتب التي تعود إلى المذاهب الأربعة وأئمّتها الأجلاء .. ليس غير أنّ بنية الوعي

[1]انظر هذه الأخبار وغيرها في سنن البيهقي 7: 443، وتلخيص الحبير لابن حجر 3: 235، المحلّى لابن حزم 10: 132- 134 ، تفسير القرطبي 9: 287، سيرة أعلام النبلاء للذهبي 8: 132، تذكرة الحفاظ للذهبي 1: 165

[2]أخرجه أحمد في المسند 5: 148، برقم 21357، وابن أبي شيبة 7: 493 ، برقم 37485، والطبراني في الأوسط 8: 242، برقم 8520. قال الهيثمي في المجمع 8: 2 ورجال أحمد رجال الصحيح غير الحارث بن حصيرة وهو ثقة وسكت عنه الحافظ في الفتح 6: 173.

[3]المحلّى لابن حزم 10: 132- 133

التناسلي تريد ذلك وفق عرفها والسلطة العباسية ترغب في ذلك وعلى العلماء مسايرة السلطة وحشد ما يؤيّد ذلك .

ليس من نصّ يحرّم المصافحة:

مرّة أخرى نعود لفهم واستيعاب وتوظيف بنية الوعي التناسلي للخطاب الديني وتوجيهه الوجهة التي تحقّق لها تأبيد الحرمان تحت هاجس الجنس ومن أجل الدفع إلى التناسل.

فمن حكمة المولى عزّ شأنه وهو العزيز الحكيم أنّه لم يذكر في كتابه دستور المسلم أيّ نصّ يحرّم المصافحة بين الرجال والنساء، بل قدّم موجّهات تربويّة عامّة بغضّ الطرف الذي يحرّك الغرائز ويستثير الشهوة. ولحكمته تعالى ترك للمجتمعات حسب تطوّرها أن تعالج أمورها الحياتيّة حسب مقتضيات عصرها ودرجات وعيها وتعاملها، تماماً كما ترك لها التخلّص من استرقاق الإنسان لأخيه الإنسان الذي كان موجوداً بل وعماد الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة ساعة نزول القرآن وحثّ على عتق الرقاب.

في أمر العلاقات بين النساء والرجال كانت هناك الموجهات بغضّ الطرف للرجل وللمرأة بمعنى عدم النظر بشهوة والاحتشام بتغطية المرأة لفتحة صدرها تفاديا للإثارة وبعداً عن الفحشاء. وحين جاء العصر العبّاسي وبدأ

العلماء في تفصيل الأمور خاصّة في أمر المصافحة لجأوا إلى استفتاء الأحاديث الشريفة فاستندوا إلى حديث واحد يقول:

" **لإن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمسّ امرأة لا تحلّ له** "

وهذا الحديث الذي اعتمده العلماء لإصدار الفتاوى بتحريم المصافحة جاء بعدّة روايات منها رواية الحافظ المنذري " ولإن يزحم رجل خنزيرا متلطخا بطين أو حمأة خير له من أن يزحم منكبه منكب امرأة لا تحلّ له"[1].

وفي رواية عن أبي العلاء عن معقل بن سيّار قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" لأن يكون في رأس رجل مشط من حديد حتى يبلغ العظم خير من أن تمسّه امرأة ليست له بمحرم."

وفي رواية عن داود بن عمرو الأدوي عن عبدالله بن أبي زكريّا الخزاعي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لإن يفرع رأس الرجل فرعا يخلص الفرع إلى عظم رأسه خير له من أن تضع امرأة يدها على رأسه لا تحلّ له، ولإن يبرص الرجل برصا يخلص البرص إلى عطفه وساعديه خير له من أن تضع امرأة يدها على ساعده لا تحلّ له "

[1] رواه الطبراني

وفي رواية عن معقل بن سيّار أيضا أخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف ج4 ص15 رقم 17310 عن معقل ابن يسار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لإن يعمد أحدكم إلى مخيط فيغرز به في رأسه أحبّ إليّ من أن تغسل رأسي امرأة ليست منّي ذات محرم"[1]

وكلّ هذه الأحاديث تمّ الاستناد إليها لتحريم مصافحة الأجنبيّات مطلقا تشدّدا لم يتّسم به الإسلام في موجّهاته العامّة ولم يحكمه نصّ في القرآن الكريم.

ففي حديث " **لإن يطعن أحدكم في رأسه بمخيط من حديد خير له من أن يمسّ امرأة لا تحلّ له**"

أوّلا: لم يخاطب المرأة بل خاطب الرّجل، والقرآن الكريم حين يوجّه أمراً يوجّهه لكلا الجنسين المسلمين والمسلمات، المؤمنين والمؤمنات، لأنّ التشريع يخصّ الإنسان أيّا كان رجلا أو امرأة، فحين خاطب المولى سبحانه ووجّه **بغضّ الطرف** ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ٣٠ ﴾ " 30 النور، لم يكتف بذلك بل أعقب الآية بقوله ﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ ٣١ ﴾ 31 النور. واضح من هذا التوجيه الإلهي حسن التربية والربط بين غضّ الطرف وحفظ الفرج لكليهما لما قد تثيره

[1] ج4 ص15 رقم 17310

الغرائز أو النفس الأمّارة بالسوء وحرصاً على عدم ارتكاب الفواحش. وهذا الحديث موجّه للرجل دون المرأة مع أنّ الغريزة مشتركة والشهوة كذلك ولدرء الوقوع في الحرام تتمّ مخاطبة الجنسين.

ثانيا: كلمة (امرأة لا تحلّ له) تدخل فيها المحارم من النساء.

ثالثا: كلمة (يمسّ) حين عدنا إلى كتاب الله نستفتيه في استخدامه لهذه المفردة (مسّ) وجدناها قد وردت (61) مرّة بمختلف اشتقاقاتها وإضافاتها إلى الضمائر، وكلّها لا تحمل معنى المصافحة، وما خصّ منها بالرجال والنساء (3)آيات جاء المسّ فيها بمعنى دخلتم أم لم تدخلوا عليهنّ أي بمعنى الجماع.

ففي سورة البقرة 236: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ ﴿٢٣٦﴾ ﴾ **لا**

وفي سورة البقرة 237: ﴿ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

وفي سورة الأحزاب 49: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ ﴿٤٩﴾ ﴾.

في كلّ هذه الآيات لم يأت مسّ الرجل للمرأة بمعنى المصافحة بل بمعنى الدخول عليها، مسّ المرأة : جامعها. وهذا ما أشارت له كذلك معاجم اللغة،

ففي لسان العرب: مسّ المرأة وماسّها: أتاها – ولا مساس أي لا تمسّني، والمسيس : جماع الرجل المرأة. وفي التنزيل العزيز " فإنّ لك في الحياة أن تقول لا مساس" قرئ لا مساس بفتح السين على التبرئة. ويكنّى بالمساس عن الجماع، والمماسّة كناية عن المباضعة، وكذلك التماس، قال تعالى " من قبل أن يتماسّا" وفي الحديث " فأصبت منها ما دون أن أمسّها" يريد أنّه لم يجامعها. والماسّي : هو الذي يدخل يده في حياء الأنثى لاستخراج الجنين إذا نشب، يقال مسيتها أمسيها مسّا ولمس المرأة جامعها.

ولنأتِ إلى تخريج الحديث:

عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمسّ امرأة لا تحلّ له"

الحديث منكر، أخرجه الروياني في مسنده (1283) والطبراني في المعجم الكبير (486) و(487) كلاهما من طريق شداد بن سعيد الراسبي عن أبي العلاء يزيد بن عبدالله بن الشخير عن معقل بن سيّار مرفوعا بلفظ " لأن يطعن في رأس أحدكم" وفي رواية (رجل) بمخيط حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحلّ له" قلت: وفيه أبو طلحة شداد بن سعيد الراسبي وهو صدوق يخطئ.. ووثّقه أحمد بن حنبل وأبوبكر البزار وابن شاهين والنسائي وزهير بن حرب ويحى بن معين. وقال البخاري: ضعّفه عبدالصمد بن عبدالوارث.

وقال ابن عدي: ليس له كثير حديث ولم أر له حديثا منكراً وأرجوا أنه لا بأس به. وقال أبوالحكم والبيهقي : ليس بالقوي. وقال العقيلي: صدوق في حديثه بعض الشيء ليس له غير حديث لا يتابع عليه. وقال ابن حبّان: ربّما أخطأ. وقال الدارقطني: يعتبر به. وقال ابن حجر: صدوق يخطئ.

وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان[1] فقال أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان : أنا أحمد بن عبيد الله ثنا الأسفاطي ثنا سعيد بن سليمان النشطي (وصوابه النشيطي) ثنا شداد بن سعيد أبو طلحة الراسبي عن الحريري عن أبي العلاء عن معقل بن يسار قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لأن يكون في رأس رجل مشط من حديد حتى يبلغ العظم خير من أن تمسّه امرأة ليست له بمحرم". قلت وفيه :

1- سعيد بن سليمان النشطي وهو ضعيف الحديث، قال عبدالرحمن بن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: لا نرضى سعيد بن سليمان النشيطي وفيه نظر. وقال أيضا: سألت أبا زرعة عنه فقال : نسأل الله السّلامة، فقلت: صدوق، فقال: نسأل الله السّلامة، وحرّك رأسه وقال: ليس بالقوي. وقال أبوعبيد الآجري: سألت أبا داود عن سعيد بن سليمان النشيطي فقال: لا أحدّث عنه. وقال الدارقطني: تكلّموا

[1] ج4، ص374، رقم 5455

فيه، وقال الذهبي: صويلح الحديث. وقال ابن حجر في التقريب: ضعيف.

2- سعيد بن إياس الجريري البصري: وهو ثقة إلا أنّه قد اختلط.

ثمّ وجدت[1] له شاهد حسن ولكنّه مرسل، أخرجه سعيد بن منصور في سننه، وأبوالقاسم البغوي في مسند ابن الجعد[2] من طريق هشيم بن بشير السلمي عن داود بن عمرو الأودي عن عبدالله بن زكريّا الخزاعي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لأن يفرع رأس الرجل فرعاً يخلص الفرع إلى عظم رأسه خير له من أن تضع امرأة يدها على رأسه لا تحلّ له، ولأن يبرص الرجل برصاً يخلص البرص إلى عطفه وساعديه خير له من أن تضع امرأة يدها على ساعده لا تحلّ له ". قلت وهذا إسناد حسن مرسل، هشيم بن بشير ثقة يدلّس إلا أنّه صرّح بالسماع فانتفى تدليسه، وداود بن عمر الأودي وهو صدوق حسن الحديث.

ثمّ وجدت علّة للحديث مانعة لتحسين الحديث أو تصحيحه وهي المخالفة، فإنّ شدّاد بن سعيد الراسبي قد خُولف، خالفه بشير بن عقبة فأوقفه. أخرجه ابن شيبة في المصنّف[3] فقال: حدّثنا أبو أسامة عن بشير بن عقبة قال: حدثني يزيد بن عبدالله بن الشخير عن معقل بن يسار قال : " لإن يعمد

[1] أبو عبدالله السكندري، مجلس الألوكة
[2] ج1- ص360 – رقم 2493
[3] ج4، ص15، رقم 17310

أحدكم إلى مخيط فيغرز به في رأسه أحبّ إليّ من أن تغسل رأسي امرأة ليست منّي ذات محرم ."[1]

وقد ذهب عدد من العلماء إلى أن هذا الحديث(حديث المسّ) لا يدلّ على تحريم المصافحة من خمسة أوجه:

1- إنّ الحديث لم يذكر فيه يد امرأة وإنّما قال (امرأة لا تحلّ له) فيبطل الاحتجاج به على تحريم المصافحة من هذا الوجه.
2- إنّ هذا الحديث وكلمة (المس) المذكورة فيه ليس فيها معنى قطعي أنّ المقصود بالمسّ هو اللمس المفهوم من الحديث للوهلة الآولى.
3- إنّ عموم قوله صلى الله عليه وسلم "لا تحلّ له" يدخل فيه المحارم كذلك لأنها ممّن لا تحلّ له كالأم والأخت وبنت الأخت والعمّة والخالة. فدخول المحارم في النص يجعل الأمر ليس لمجرد اللمس أو المصافحة.
4- إنّ قوله صلى الله عليه وسلم " لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط حديد قرينة على الجزم وكناية على العقوبة وهي الطعن في الرأس والمخيط وهو ما يخاط به كالإبرة والمسلّة والمخرز، والطعن في الرأس معناه القتل.

[1] أبو عبدالله أحمد بن عبدالمنعم حشيش السكندري في المجلس العلمي الألوكة .www. Majles. Alukah.net

5- إضافة إلى أنّ الحديث مختلف في صحته فمن المحدّثين من ضعّفه، وممّن ضعّفه الإمام البيهقي والإمام الدارقطني وأبوعبدالرحمن وابن عدي والإمام يحى بن معين وغيرهم[1]

ونضيف إلى كلّ هذا ما أوردنا من أنّ كلمة المس حسب ما جاءت في التنزيل وفي معاجم اللغة إنما تعني المجامعة وليست المصافحة.. ومع كلّ ذلك نجد هناك من يفتي بتحريم المصافحة. أمّا حديث عائشة الذي حدّث به البخاري وأثبته في صحيحه رقم 5288، والذي نصّه " لا والله ما مسّت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة قط غير أنّهنّ بايعنه بالكلام، فهو حديث موقوف، وكلامها هذا على حدّ علمها برسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعلم أنّ رسول الله تزوّج أكثر من أربعة نسوة وكانت خديجة رضي الله عنها قبل عائشة فكيف تكون قد عرفت السابق واللاحق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم دون إخبارها ولو أخبرها صلى الله عليه وسلم لقالت " أخبرني" أو " قال لي رسول الله " ولذلك فقولها موقوف عليها، والموقوف لا تقوم به الحجّة .

المبحث الثاني :

[1] www.paldf.net

إسلام التسامح في كتاب الله وإسلام العنف لدى الفقهاء.

لشدّ ما أذهلني شطط كبار المفسّرين في تأويل الآية الخامسة من سورة (براءة) التي أطلقوا عليها اسم (آية السيف) وشرّعوا قتال كلّ من في الأرض إن لم يسلم، لتكون عونا لكلّ المتشدّدين والإرهابيّين باسم الإسلام، مدّعين أنّها نسخت كلّ آيات التسامح مع أبناء الديانات الأخرى، بل أكثر من مائة آية في كتاب الله العزيز.

دعونا نتابع أوّلا آيات تسامح الإسلام مع أبناء الديانات الأخرى:

- جاء في سورة الحجرات : آية 13 ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾
- وفي سورة الممتحنة 8 : ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ ﴾
- وفي سورة البقرة 256: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ٢٥٦ ﴾
- وفي سورة العنكبوت 46: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٤٦ ﴾
- وفي سورة المائدة 5 : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ

ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٥ ﴾

- وفي سورة النساء 86 : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ۝٨٦ ﴾
- وفي سورة لقمان 15: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ ۝١٥ ﴾

ثمّ لنتابع الآيات التي تبيّن كيفيّة الدعوة لدين الله :

- في سورة النحل 125: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝١٢٥ ﴾
- وفي سورة طه 43– 44 مخاطبا رسوليه موسى وهارون: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤ ﴾
- وفي سورة النازعات 17– 19: ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ۝١٩ ﴾
- وفي سورة البقرة 83: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ۝٨٣ ﴾
- وفي سورة العنكبوت 46: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٤٦ ﴾

يقول الإمام القرطبي :قال مجاهد: هذه الآية محكمة. وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانيّة ويفسّرونها بالعربيّة لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم وقولوا آمنّا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم")[1].

- وفي سورة النّحل 125- 128: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨ ﴾
- وفي سورة القصص 56: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ٥٦ ﴾
- وفي سورة البقرة 272 : ﴿ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ ٢٧٢ ﴾
- (وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال "اللهمّ من ولي من أمر أمّتي شيئا فرفق بهم فارفق به، ومن ولي من أمر أمّتي شيئا فشقّ عليهم فاشقق عليه- وقد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: إنّ الله رفيق يحبّ الرفق ويرضاه ويعين عليه

[1]تفسير القرطبي ج13 ص 350- 351.

ما لا يعين على العنف –كما صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: عليك بالرفق فإنّ الرفق لا يكون في شيء إلاّ زانه، ولا ينزع عن شيء إلا شانه.– وقال صلى الله عليه وسلم : من يحرم الرفق يحرم الخير كلّه.")

وهناك آيات تدعو إلى الصفح :

- في سورة التغابن 14 : ﴿ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤ ﴾
- وفي سورة النور 22: ﴿ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٢ ﴾
- وفي سورة المائدة 13: ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣ ﴾
- وفي سورة الحجر 85: ﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥ ﴾
- وفي سورة البقرة 109: ﴿ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ ١٠٩ ﴾
- وفي سورة الزخرف 89: ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٨٩ ﴾

وهناك آيات تدعو إلى العفو :

- في سورة البقرة 237: ﴿ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ ٢٣٧ ﴾
- وفي سورة النساء 149: ﴿ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ١٤٩ ﴾

- وفي سورة النّور 22: ﴿ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ ﴿٢٢﴾ ﴾
- وفي سورة آل عمران 159: مخاطبا رسوله الكريم بأن يعفو عن المسلمين : ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴿١٥٩﴾ ﴾
- وفي سورة المائدة 13: ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾
- وفي سورة البقرة 109: ﴿ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ ﴿١٠٩﴾ ﴾
- وفي سورة البقرة 178: ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴿١٧٨﴾ ﴾
- وفي سورة البقرة 219: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ ﴿٢١٩﴾ ﴾
- وفي سورة الأعراف 199: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

وهناك آيات تدعو إلى السلم:

- في سورة البقرة 208: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴿٢٠٨﴾ ﴾
- وفي سورة الأنفال 61: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴿٦١﴾ ﴾
- وفي سورة النساء 90: ﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ ﴾

- وفي سورة الفرقان 63: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾
- وفي سورة فصّلت 34: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

أمّا الجهاد والقتال والنفير:

فكلّنا يعلم أنّ بلاغة القرآن وبيانه وفصاحته جاءت إعجازا ألجم الفصحاء والبلغاء من العرب فآمنوا به كتاباً منزلاً من ربّ العالمين، ومن بلاغته وبيانه خلوّه من المترادفات، فجاءت كلّ مفردة في مكانها البياني والسياقيّ الصحيح.

فجاءت مثلا مفردتي : الصيام والصّوم فيما يخصّ المعدة وما يخصّ القول أو التفوّه بغيرالحق. إلاّ أن عدداً من الفقهاء يعتقدون بأنهما متردفتان وبمعنى واحد مستشهدين بعدد من الأحاديث رغم أنّ اللغة في معاجمها وصياغاتها الصرفيّة تدلّل على الفرق كما استخدام القرآن لهما.

ومفردتا (أكمل) و(أتمّ) من تدرّج للإكمال في (أكمل) وعدم الانقطاع حتى التّمام في(أتمّ) – (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) (وأتمّوا الصيام إلى الليل) وليس أكملوا. كما جاءت مفردات (المطر) بما يصاحبه

من أذىً و (الغيث) بما فيه من خير وبركة (ولا جناح عليكم إن كان بكم أذىً من مطر أو كنتم مرضى) النساء 102 (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الوليّ الحميد) الشورى 28. كذلك الفرق اللغوي بين (أوصى) لمرحلة مؤقّتة وبأمور محدّدة وللأمورالماديّة (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) النساء 11، وبين (وصّى) التي تفيد استمرار التوصية وللأمور المعنويّة (ووصّينا الإنسان بوالديه) العنكبوت 8 (ووصّى به إبراهيم بنيه ويعقوب) البقرة 132، ولم يستعمل (أوصى) في الأمور المعنويّة وأمور الدّين إلا في قوله تعالى (وأوصاني بالصلاة والزّكاة ما دمت حيّا) مريم 31، وذلك لاقتران الصلاة بالزكاة. كذلك جاءت الفروق اللغويّة في الاستخدام القرآني بين (الضرب) و (الجلد) وبين (المرأة) و(الزوجة) و(الصاحبة) وبين (المكر) و(الكيد) وبين (متشابها) و(مشتبها)، كذلك جاءت الفروق واضحة في القرآن الكريم بين (الجهاد) و(القتال) و(النفير)..

فقد جاءت آيات الجهاد (26) آية وآيات القتال (38) آية، وآيات النفير (6) آيات.

فحصر الجهاد في القتال يضيّق عليه المعنى لأنّه يتسع ليشمل عدّة ميادين في الحياة منها البذل والجهد والمشقّة وكل ما هو مستطاع من بذل النفس أوالجهد أو المال في سبيل إعلاء كلمة الله، ومنها كلمة الحقّ عند السلطان الجائر وهي أفضل الجهاد ومنها جهاد المنافقين وجهاد النفس ومنها برّ

الوالدين والحجّ المبرور ومجاهدة الرجل نفسه وهواه، والمجاهد من جاهد نفسه، ومجاهدة الأهواء. وقد ذهب العديد من العلماء إلى أنّ الجهاد أربع مراتب: – جهاد النفس بالتعلم والعمل والدعوة والصبر – وجهاد الشيطان باليقين والصبر – وجهاد الكفار والمنافقين باللسان وبالمال والنفس وبالقلب. – وجهاد أهل البدع والمنكرات باليد واللسان وبالقلب.

وقد حدّد فضيلة شيخ الأزهر أحمد الطيّب مفهوم الجهاد في الإسلام بأنّ مشروعيته ارتبطت بغايات إنسانيّة نبيلة، الأمر الذي يعني الجهاد في فلسفة الإسلام لم يشرّع من أجل التوسّع أو احتلال الأرض أو السيطرة على موارد الغير أو قهر الشعوب وإذلالها أو غير ذلك من الأغراض المادّية التي شكّلت بواعث الحرب في كبرى حضارات العالم قديماً وحديثاً. والجهاد في الإسلام ليس أمراً بالقتل بل هو بالمقاتلة أي التصدّي للمقاتل ومجاهدته لردّ عدوانه ووقف هجومه. وفريضة الجهاد ليس إلا حق الدفاع عن النفس وعن العقيدة والوطن وليس هناك من يصادر هذا الحق الطبيعي[1] ونلاحظ أنّه قد أخذت جزئيّة القتال مع أنّها تشكّل جزءاً من المعنى الشامل للجهاد، ولكنّها الأدبيّات التي توافق عليها الفقهاء. ونلاحظ أنّ جلّهم يتحدّث عن الجهاد ويستشهد بآيات القتال دون وضع للفروق التي جاءت في النص القرآني موضّحة ذلك.

[1] أحمد الطيب شيخ الأزهر waag-azhar.org

ولنتتبّع آيات الجهاد التي وردت في القرآن الكريم وهي (26) آية لنستنتج ونتأمّل ونتدبّر مدلولاتها وهل ينسجم مع ما في أدبيات الإسلام التي توافق عليها الغالبية من الفقهاء.

- يقول تعالى **(فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا)** والجهاد الكبير هو الدعوة والبيان بالحجّة والبرهان. وأعظم حجّة وبيان هو هذا القرآن، إنّه حجّة الله على خلقه، قال ابن عبّاس رضي الله عنه " وجاهدهم به أي القرآن".
- وقال تعالى **(يا أيّها النبي جاهد الكفّار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنّم وبئس المصير)** وجهاد المنافقين ليس بالقتال لأنّهم يظهرون الإسلام ويتخذونه جنّة بل يكون بالكشف عن أسرارهم ودواخلهم وأهدافهم الخبيثة وتحذير المجتمع منهم.
- وقال تعالى : **(والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين)** نقل ابن كثير عن ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن عباس قال في تفسير هذه الآية " الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون" فتفسيرها (الذين جاهدوا فينا) أي جاهدوا في ذات الله أنفسهم وشهواتهم وأهواءهم وجاهدوا العراقيل والعوائق، وجاهدوا الشياطين وجاهدوا العدوّ من الكفّار المحاربين، فالمقصود الجهاد في معترك الحياة كلّها.

- وقال تعالى في سورة البقرة 218 : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨ ﴾ وهنا ارتباط الهجرة بالجهاد يدلّل على الدعوة في سبيل الله وليس إلى القتال خاصّة مع رجاء الرحمة ودعم ذلك بالفاصلة والله غفور رحيم.
- وقال تعالى في سورة المائدة 35 : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥ ﴾ فالدعوة لتقوى الله وابتغاء الوسيلة له بالجهاد في سبيله يدلّل كذلك على الدعوة للإسلام بالقول وليس القتال بدعم الفاصلة (لعلّكم تفلحون) فيهتدي غيركم بكم.
- وقال تعالى في سورة الأنفال74: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ ﴾ كذلك ارتباط الإيمان بالهجرة والدعوة إلى الله والذين آووا المهاجرين ونصروهم، لا يدلّ على القتال بدعم الفاصلة " لهم مغفرة ورزق كريم".
- وفي سورة العنكبوت 6 : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦ ﴾ فإن تبذل أقصى جهدك في الدعوة إلى الله وتجاهد نفسك فذلك يعود إليك نفعا.

- وفي سورة العنكبوت آية 69 ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾

وهكذا إذا تتبّعنا كلّ آيات الجهاد التي وردت في القرآن الكريم لا نجدها تخرج عن الجهاد بالمعنى الشامل من هداية الناس إلى الحقّ لعبادته جلّ شأنه وعدم الإشراك به ونصرة المظلومين ورفع الظلم عنهم والدفاع عن الوطن والأرض والأعراض والأموال والأنفس.. وهو فرض كفاية على المسلمين إلاّ جهاد النفس فهو فرض عين. وقد جاءت آيات الجهاد في البقرة (218) آل عمران (142) النساء (95) المائدة (35) الأنفال (72- 74- 75) التوبة (16- 20- 24- 41- 44- 73- 81- 86- 88) النحل (110) الحج (78) الفرقان (52) العنكبوت (6- 69) محمد (31) الحجرات (15) الممتحنة (1) الصف (11) التحريم (9).

أمّا آيات القتال وليس القتل أي المجابهة والدفاع عن الأرض والعرض لإعلاء كلمة الله فقد وردت (38) مرّة شملت البقرة (178- 190- 191- 193- 216- 244- 246) آل عمران (13- 157- 158- 167- 195) النساء (74- 75- 76- 77- 84- 89- 91) الأنفال (17- 39- 65) التوبة (5- 12- 13- 14- 29- 36- 111- 123) الحج (58) محمد (4- 20) الفتح (16) الحديد (10) الصف (4) الممتحنة (8- 9).

ولنتابع في هذه الآيات أنّ القتال كتب عليهم وهو كره لهم لكنّهم لابدّ من أن يردّوا العدوان عنهم وفيها توجيه بعدم الاعتداء، وأنّه دفاع عن النفس، وقتال الذين يثيرون الفتنة فإن كفّوا فلا عدوان عليهم إلا على الظالمين.

- آية القتل هي آية القصاص البقرة 178 : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ ﴾ وهو قانون وشرع في ديار المسلمين.
- والقتال لردّ العدوان في سورة البقرة 190 ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾ وهنا توجيه كذلك بعدم الاعتداء على الآخرين. وكذا في الآية 194 ﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ١٩٤ ﴾
- وعن الدفاع عن النفس جاء في سورة البقرة 191 ﴿ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ ﴾ والقتل هنا ليس غدراً بل مجابهة بمن قاتل المسلمين ومن أخرجهم من ديارهم وتجرّأ على قتالهم عند المسجد الحرام.

- قتال الذين يثيرون الفتنة بين المسلمين فإن كفّوا عن ذلك فلا عدوان عليهم إلا على الظالمين ، جاء في سورة البقرة 193: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣ ﴾ والمسلمون لا يبادئون بالقتال إلا حين لا يكون من سبيل إلا رد العدوان ففي البقرة 216 ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ ٢١٦ ﴾
- وحين يكتب القتال فالمجالدة ومقاتلة المعتدين وضرب الله مثلا ببني إسرائيل في سورة البقرة 246 ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦ ﴾
- والقتال في ردّ العدوان والأذى، جاء في سورة آل عمران 195 ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥ ﴾
- والقتال لنصرة المظلومين وقتال الظالمين، جاء في سورة النساء 75 ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ

يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرٗا ٧٥ ﴾

- وبما أنّ المسلمين كانوا مستهدفين وكان بأس الكفّار عليهم شديدا فلابدّ من تحريض المؤمنين على القتال، جاء في سورة النساء 84 ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤ ﴾
- ومتى يكون القتل وليس القتال هذه المرّة في سورة النساء 91 ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ٩١﴾

آية السّيف:

- ثمّ جاءت الآية الخامسة من سورة التوبة التي أطلق عليها الفقهاء آية السيف إعلانا للعنف في الإسلام وصكّا من الفقهاء للحكّام بالتوسّع والاعتداء على الغير وإخضاعهم بالقوّة والسيف للدولة الإسلاميّة، بل إنّهم ذهبوا لأبعد من ذلك فكلّ الصفح والعفو والسلام والتسامح واحترام الأديان الأخرى والدعوة لدين الله بالحكمة والموعظة الحسنة ومجاهدة النفس والقول اللين كلّ ذلك قرّر فقهاء السلطان ووعاظهم أنه منسوخ بهذه الآية التي تقول :

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥ ﴾ وأضحت هذه الآية من أكثر الآيات إشكاليّة في فهم فلسفة الجهاد من منظور الشرع الإسلامي، يقول عدنان سلمان [1]: إنّ هناك ثلاث قراءات لهذه الآية في العالم الإسلامي :

القراءة الأولى هي القراءة التي يتبنّاها التيّار السلفي الجهادي، وهي القراءة التي تستند إلى مفهوم يقول: إنّ عدم الإيمان بالله والإسلام له يعتبر بحدّ ذاته مبرّرا لإباحة قتل الإنسان حتى إذا لم يكن هذا الإنسان عدوّاً محاربا، وتبنّى هذه الرواية على مقولات جلّ علماء الفقه والتفسير الذين يعتبرون أنّ آية السيف قد نسخت كلّ آية مخالفة والنسخ هنا يعني أنّ تلك الروايات المخالفة قد "سقط حكمها وبقي رسمها" فلا يصلح الأخذ بها.

يقول الشيخ بن باز وهو من أكبر علماء السلفيّة: إنّ هذه الآية ناسخة لجميع الآيات التي فيها الصفح والكف عن المشركين والتي فيها الكف عن قتال من لم يقاتل. قالوا: فهذه آية السيف هي آية

[1] الإسلام دين قتل أم دين سلام ح2 آراء العربيّة : قضايا وآراء 19. 4. 2015

القتال، آية الجهاد، آية التشمير عن ساعد الجد، وعن المال والنفس لقتال أعداء الله حتى يدخلوا في دين الله وحتّى يتوبوا عن شركهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقّ الإسلام.

بعد ذلك ذكر بن باز أنّ ابن تيمية " وهو مؤسّس التيّار السلفي" يرى أنّ آية السيف ليس فيها نسخ وإنما على حسب أحوال المسلمين في ضعفهم وقوّتهم فإن كان المسلمون ضعفاء يقاتلوا حسب قدرتهم وإن كانوا أقوياء قاتلوا أهل الأرض جميعا.

ثمّ يورد عدنان سلمان **القراءة الثانية** لآية السيف وهي التي يقوم فيها الأستاذ محمود محمد طه مؤسس الفكر الجمهوري في السودان بطرح ما يعرف بآيات الأصول وآيات الفروع، وهي قراءة متضمّنة لشكل من أشكال النسخ الذي يختلف عن القراءة الأولى حيث يشير إلى أنّ الآيات المكّيّة هي الأصل في القرآن وهي الآيات التي تدعو لحريّة الاعتقاد والمساواة وعدم تخيير الناس بين الإسلام أو القتال. وبحسب هذه القراءة فإنه بعد ثلاث عشرة سنة من تهميش المسلمين وتعذيبهم ومحاربتهم ومحاولات لقتل النبي محمد صلى الله عليه وسلم واضطهاد أتباعه جاءت هجرة الرسول للمدينة حيث نزلت الآيات المدنيّة (آيات الفروع) لتنسخ آيات الأصول وتحدث ثورة

عنيفة استوجبت إعمال السيف والقتال، وكانت آية السيف من ضمن آيات الفروع التي جبّت آيات الحريّة والمساوة والاختيار. وبحسب هذه القراءة فإنه وبعد مرور زمن على حياة الرسول، توجّب أن يحدث نسخ جديد تعود بموجبه آيات الأصول (الآيات المكيّة) بوصفها قمّة الدين لأنّها تقوم على تقرير كرامة الإنسان، وفي هذا السياق يسقط التعامل بأحكام آية السيف.

ويعلّق عدنان سلمان على هذه القراءة بأنها على الرغم من إضفاء البعد التاريخي في قراءة النصوص الدينيّة إلاّ أنّها تعاني من خلل أساسي يتمثل في الانتقائيّة التي تمارسها في قراءة النص، فليست كل الآيات المدنيّة تنادي بالعنف والقتال والعكس كذلك صحيح.

أمّا **القراءة الثالثة** فهي القراءة التي ترفض مبدأ النسخ وتدعو إلى قراءة آية السيف في سياقها القرآني ضمن الآيات التي وردت قبلها وتلك التي جاءت بعدها. ومن أنصار هذه القراءة الباحث المصري الدكتور نهرو طنطاوي الذي يستنكر تسمية آية السيف بهذا الاسم ويعتبره من اختراع الفقهاء والمفسّرين. وتدعو هذه القراءة إلى عدم اقتطاع الآية من سياقها الذي وردت فيه فهي قد وردت في سياق من الآيات في أوّل سورة التوبة مكوّن من 15 آية فقبلها أربع آيات وبعدها عشر آيات.

ويخلص أصحاب هذه القراءة إلى أنّ فهم آية السيف في سياقها الداخلي لا يؤدّي إلى النتيجة التي توصّل إليها الفقهاء والمفسّرون من أصحاب القراءة الأولى والتي تقول بأنّها نزلت لقتال أهل الأرض جميعا كي يعتنقوا الإسلام. فالآيات الخمسة عشر مليئة بالاستثناءات لبعض من غير المسلمين، وهي استثناءات وردت في الآيات الواردة قبل آية السيف والآيات الواردة بعدها ومنها ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ ٤ ﴾ ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦ ﴾

- ومع اتفاقي مع القراءة الثالثة أضيف أنّ مفهوم آية السيف ذاتها لا تدعو إلى ما ذهبت إليه القراءة الأولى أو الثانية، فليست سوى تنظيم داخلي للدولة الإسلاميّة. أولا: فقد نزلت في السنة التاسعة للهجرة أي قبل حجة الوداع، وأعلنت في الحجيج الذي كان إلى ذلك العهد يؤديه المسلمون والمشركون ومنهم من يطوف عريانا بالبيت الحرام. ثانيا : لقد كان المشركون يفدون لأداء الحج خاصّة في الأشهر الحرم لأنّهم كانوا يأمنوا على أنفسهم أن يصيبهم شيء من المسلمين. ثالثا: في تنظيم أيّ دولة حتى المعاصرة الآن تمنح

الأجانب فترة محدّدة للسياحة، بعدها إن لم يغادروا طاردتهم السلطات وقامت بترحيلهم أو سجنهم لكسر الإقامة الممنوحة لهم وأحيانا يحرّمون عليك دخول بلدهم نهائيا طيلة مدة حياتك . رابعاً: من هذا المنظور جاءت الآية لتحديد فترة السياحة بأربعة أشهر وقد كان قبلها يمكن بالعهد أن تكون أكثر من ذلك فجاءت لتحديد الفترة الزمنيّة المسموح بها حتى يأمن المسلمون الجواسيس والذين يحرضون ضدّهم، ثم مُنع المشركون بعد ذلك من الطواف بالبيت نهائيا.. وكلّها أمور تنظيميّة بعد أن بدأت تتشكّل دولة المسلمين في مكّة.

* وقد روى البخاري (369) ومسلم (1347) عن أبي هريرة قال :" بعثني أبوبكر في تلك الحجّة التي أمّر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر على الحج في السنة التاسعة قبل حجّة الوداع بسنة – في مؤذّنين يوم النّحر، نؤذّن أن لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عُريان". قال حُميد بن عبدالرحمن : ثمّ أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّا ، فأمره أن يؤذّن ببراءة، قال أبوهريرة: فأذّن معنا عليّ في أهل منى يوم النّحر: (لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريانٌ)

وقال أبو معشر المدني: حدّثنا محمد بن كعب القُرظيّ وغيره قالوا: " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكرٍ أميراً على الموسم سنة تسع، وبعث

عليّ بن أبي طالب بثلاثين آية أوأربعين آية من – براءة – فقرأها على الناس، يؤجّل المشركين أربعة أشهر يسيحون في الأرض، فقرأها عليهم يوم عرفة، أجّل المشركين عشرين من ذي الحجّة، والمحرّم وصفر، وشهر ربيع الأوّل، وعشراً من ربيع الآخر، وقرأها عليهم في منازلهم، وقال : لا يحُجّنّ بعد عامنا هذا مشرك، ولا يطُوفنّ بالبيت عريانٌ ".

- جاء في تفسير ابن كثير: وقوله (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) أي من الأرض وهذا العام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله " ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم" البقرة 191
- وقال العوفي : ثمّ اختلف المفسّرون في آية السيف هذه فقال الضحّاك والسدي: هي منسوخة بقوله تعالى :" فإمّا منّاً بعدُ وإمّا فداء" محمد 4 ، وقال قتادة بالعكس.
- وفي تفسير الطبري: فإذا انسلخ الأشهر الحرم .. ومعنى الكلام فإذا انقضت الأشهر الحرم الثلاثة عن الذين لا عهد لهم أو عن الذين كان لهم عهد فنقضوا عهدهم بمظاهرتهم الأعداء على رسول الله وعلى أصحابه أو كان عهدهم إلى أجل غير معلوم " فاقتلوا المشركين".

- كما أورد الطبري حديث 16479 : حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال قال ابن دريد في قوله : براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر قال: ضُرِبَ لهم أجل أربعة أشهر وتبرأ من كلّ مشرك ثمّ أمر إذا انسلخت تلك الأشهرالحرم (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلّ مرصد) لا تتركوهم يضربون في البلاد ولا يخرجوا لتجارة، ضيّقوا عليهم بعدها، ثم أمر بالعفو " فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم إنّ الله غفور رحيم"
- وقال الزرقاني [1] " أمّا السيف ومشروعيّة الجهاد في الإسلام فلم يكن لأجل تقرير عقيدة في نفس، ولا لإكراه شخص أوجماعة على عبادة، ولكن لدفع أصحاب السيوف عن إذلاله واضطهاده، وحملهم على أن يتركوا دعوة الحقّ حرّة طليقة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ".

قضيّة النسخ في القرآن:

أمّا النسخ الذي عمد إليه الفقهاء لخلق مساحة لهم لتوطين الآيات التي تدعم وجهة نظرهم فهي قضيّة نحتاج الوقوف عندها، حيث اشتطّ بعض الفقهاء حتى وصلوا إلى مراحل تدعو للتشكيك في النص القرآني وأنّه جاء

[1] مناهل العرفان 2: 406

وهو ينسخ بعضه بعضا، بل وصل بهم الأمر لدى البعض إلى الادعاء بنسخ 293 آية من بين 62 سورة من سور القرآن الكريم، رغم أنّه لا يوجد نصّ قرآني يحدّد الآيات المنسوخة والآيات الناسخة، ولم يثبت أنّ بيّنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك ادّعوا أنّ هناك ما نسخ حرفه وبقي حكمه، وما نسخ حكمه وبقي حرفه، وما نسخ حكمه ونسخ حرفه، ووضعوا المصنّفات وألّفوا الكتب في هذا الأمر. ومن بين هذه الكتب:

- " الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن" أبوعبدالله بن سلام (ت 224هـ) وقد حقّقه محمد بن صالح المديفر.
- " الناسخ والمنسوخ" هبة الله بن سلامة البغدادي (ت410هـ).
- " تاريخ القرآن" لإبراهيم الأبياري.
- المبحث الرابع عشر من " مناهل العرفان " محمد عبدالعظيم الزرقاني.
- " النسخ في القرآن الكريم " د. مصطفى زيد رحمة الله.
- " الآيات المنسوخة في القرآن الكريم " د. عبدالله بن محمد الأمين الشنقيطي ، ط/ مطبعة العلوم والحكم بالمدينة المنوّرة.

وكثير غيرها فقد ادّعى :

- د. مصطفى زيد نسخ (293) آية.
- ابن الجوزي (247) آية
- السكّري (218) آية
- ابن حزم (214) آية
- ابن سلامة (213) آية
- الأجهوري (213) آية
- ابن بركات (210) آية
- مكي بن أبي طالب (200) آية
- النحاس (134) آية
- عبدالقاهر (66) آية
- محمد عبدالعظيم الزرقاني (22) آية
- السيوطي (20) آية
- الدهلوي (5) آيات.

وكلّ ذلك اجتهاد منهم أرى أنه جانبهم الصواب، فالقرآن الكريم جاء لكلّ البشريّة وخاطب كلّ المجتمعات على تعاقب الأزمان، وعلى ذلك فالآية التي لا تخاطبك في عصرمّا ربّما تخاطب غيرك في عصر آخر، فلا يعقل توظيف النص القرآني حسب رؤية البعض ووعيه ليسقط أحكاما ويعترف

بأخرى، وقد ثبت أنّ الفقهاء لم يتفقوا في النسخ إلاّ في آية واحدة، ومع ذلك فقد حصر(مجمّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف) جدول الآيات المنسوخة والناسخة مع ذكر من قال بذلك ومن قال بعدم النسخ فيها، يمكن الرجوع إليه.

وقد اعتمد الفقهاء مصطلح النسخ من الآية الكريمة ﴿ ۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦ ﴾ وقد ذهب الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ محمد رشيد[1] إلى القول بأنّ كلمة آية هنا هي ما يؤيّد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوّتهم، وقالوا إنّ نسخ الأحكام الشرعيّة يفهم من قوله تعالى (وإذا بدّلنا آية مكان آية) وليس من قوله (ما ننسخ من آية) واستدلّوا على ذلك بالسياق الذي وردت فيه وبلاغة الفاصلة في كلّ آية والموازنة بين سياق آية (ما ننسخ) وآية (وإذا بدّلنا) نجد الأولى ختمت بقوله تعالى (ألم تعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير) والثانية بقوله تعالى (والله أعلم بما ينزّل قالوا إنّما أنت مفترٍ) فذكر العلم والتنزيل ودعوى الافتراء في الثانية يقتضي أن يراد بالآيات فيها آيات الأحكام، وأمّا ذكر القدرة والتقرير بها في الأولى فلا يناسب موضوع الأحكام ونسخها، وعلى ذلك فإنّ المعنى الذي يلتئم مع السياق أنّ الآية هي ما يؤيّد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوّتهم (ما ننسخ من آية) نقيمها

[1]تفسير المنار 1: 417

دليلا على نبوّة نبيّ من الأنبياء، أي نزيلها ونترك تأييد نبيّ آخر بها أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها، والآية في اللغة هي الدليل والحجّة والعلامة على صحّة الشيء [1]، فرسالة محمد هي خير الرسالات وناسخة لها. ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَاۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

وأمّا تبديل آية مكان آية فلا تعود إلى استبدالها أو رفع حكم شرعي بدليل شرعيّ آخر متراخ عنه، فما أراه بين آيات القرآن الكريم وآيات سابقة فيما أنزل في الكتب السماويّة الأخرى، بدليل قولهم (إنّما أنت مفترٍ) وقد جاء القرآن ليهدينا سنن الذين من قبلنا، فأيّ تبديل لآية يعتبرون ذلك افتراء. وبدليل " **واتل ما أوحي إليك من كلمات ربّك لا مبدّل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا**).

ومع ذلك فقد استخدم الفقهاء مصطلح النسخ وقالوا بأنّه مختص بآيات الأحكام فقط وليس بآيات العقائد والأخلاق لأنها ثابتة لا تقبل التبديل وليس بالأخباروقصص السابقين حيث لا يعقل ذلك، وحصروها في الأمر والنهي وما يتعلق بفروع العبادات والمعاملات(الأحكام) لا في أصولها ولا في أمّهات الأخلاق.

[1] المنار 1: 416-417

والآية الوحيدة التي اتفق العلماء حول نسخها هي الآية 12 من سورة المجادلة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ﴾ يقولون أن هذه الآية نسخت بالآية التي بعدها ﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ ١٣ ﴾ ومع اتفاقهم حول نسخها اختلفوا في سبب نزولها والناسخ لها هل هي الزكاة، أوالآية التي بعدها وهو رفع الوجوب المطلق[1]

وذهب كثير من الفقهاء إلى أن هناك أكثر من مائتي آية في سورة الأحزاب قد تمّ نسخها لفظاً وحكماً، وبعضهم إلى أنّها لفظاً لاحكماً، بما يعني أنّ القرآن الكريم كان أكبر ممّا هو بين أيدينا، وقد استندوا إلى ذلك واستدلّوا بالأحاديث التي رويت ووصفت بأنّها صحيحة.

جاء في فتوى رقم 72926 في إسلام ويب 28. 3. 2006م (إنّ آية الرجم التي نسخ لفظها وبقي حكمها كانت في سورة الأحزاب، كما عند ابن حبّان في صحيحه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، قال كانت سورة الأحزاب توازي سورة البقرة فكان فيها (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة) وحكمها باقٍ غير منسوخ كما ثبت عن عمر رضي الله عنه، فقد أخرج ابن ماجة في سننه من حديث ابن عبّاس رضي الله عنه قال قال عمر بن الخطّاب " لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل ما

[1] المنسوخ من آيات القرآن الكريم، عرض لبحث عبدالرحمن الشهري – موقع أهل التفسير

أجد الرجم في كتاب الله فيضلّوا بترك فريضة من فرائض الله، ألا وإنّ الرجم حقّ إذا أحصن الرجل وقامت البيّنة أو كان حمل أو اعتراف، وقد قرأتها – الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة – رجم رسول الله صلى الله عليه وسلّم ورجمنا بعده. قال الشيخ الألباني: صحيح، وكذا أخرجه البهقي في سننه بروايات وألفاظ مختلفة، وقال: وفي هذا دلالة على أنّ آية الرجم حكمها ثابت وتلاوتها منسوخة وهذا ممّا لا أعلم فيه خلافا "

التساؤل الذي يفرض نفسه: مائتي آية منسوخة من سورة الأحزاب التي كانت تعدل البقرة لم يحفظ منها سوى آية (الشيخ والشيخة) ؟ وماذا غيرها؟ وهل يمكن أن نعقل أنّ جزءا من القرآن الكريم حذف بعد أن دوّن أو ضاع ولماذا ؟ وإذا كان حكمها باق فلم نسخ لفظها؟ وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجم وعمر قد رجم فلم لم تثبت لفظا ؟ وكيف نصدّق أنّ آيات كانت في صحيفة تحت سرير عائشة أكلتها شاتها..

- قال عبدالله بن يوسف الزيلعي (ت762هـ) قلت رواه الدارقطني في سننه في كتاب الرضاع من حديث محمد بن اسحاق عن عبدالله بن أبي بكر عن عمره عن عائشة وعن عبدالرحمن القاسم عن أبيه عن عائشة قالت (لقد نزلت آية الرجم والرضاعة وكانتا في صحيفة تحت سريري فلمّا مات النبي صلى الله عليه وسلم تشاغلنا بموته فدخل داجن فأكلها) انتهى.. وكذلك رواه أبويعلى الموصلي في

سنده، ورواه البيهقي في "المعرفة في الرضاع" من طريق الدارقطني بسنده المتقدم ومتنه. وكذلك رواه البزار في مسنده والطبراني في معجمه الوسط في ترجمة محمود الواسطي، وروى إبراهيم الحربي في كتاب "غريب الحديث" ثنا هارون بن عبدالله ثنا عبدالصمد ثنا أبي قال: سمعت حسينا عن ابن أبي بردة أنّ الرجم أنزل في سورة الأحزاب وكان مكتوبا في خوصة في بيت عائشة فأكلتها شاتها" [1]

- قال أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت852هـ) قوله : وأمّا ما يحكى أنّ تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة فأكلتها الداجن فمن تأليف الملاحدة والروافض. قلت: بل راويها ثقة غير متهم... وكأنّ المصنّف فهم أنّ ثبوت هذه الزيادة يقتضي ما تدّعيه الروافض : أنّ القرآن ذهب منه أشياء.. وليس ذلك بلازم، بل هذا ممّا نسخت تلاوته وبقي حكمه، وأكل الداجن لها وقع بعد النسخ[2]

قال محمد بن علي الشوكاني (ت1250هـ) وأخرج أبو عبيد في " الفضائل" وابن الأنباري، وابن مردويه عن عائشة قالت "كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبي صلى الله عليه وسلم مائتي آية فلمّا كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلا على ما هو الآن"[3]

[1] الإسعاف 3: 94-95
[2] الكافي الشافي : 132
[3] فتح القدير 4: 341

- وأخرج مالك والبخاري 6841 ومسلم 27/ 1694 وابن ضريس عن ابن عباس أنّ عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أمّا بعد أيّها الناس إنّ الله قد بعث محمدا بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة) ورجم رسول الله ورجمنا بعده فأخشى أن يطول بالناس زمان فيقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلّوا بترك فريضة أنزلها الله"[1]

دعونا نعقل الأمور ولا ننساق مع من التزم بالنقل فقط دون تدبّر.. فلقد فصّل الله سبحانه وتعالى عقوبة الزنا في القرآن الكريم كما يلي:

- بدأت سورة النور بقوله تعالى ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ ﴾
- وبعدها مباشرة ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾
- وجاءت عقوبة الجارية إذا وقعت في الزنا بعد التحذير من إكراهها على الزنا ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا

[1] الدر المنثور 11: 715-716

لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ النور 33

- وإذا تزوّجت الجارية وأحصنت ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ﴿٢٥﴾ ﴾ النساء 25.

- وفي حالة عجز الرجل عن إثبات حالة الزنا على زوجته ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾ النور: 6-9

- وحتّى في حالة استثنائيّة مستبعدة لنساء النبي ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ الأحزاب: 30-31

- ومن الصعب إثبات حالة الزنا ومن السهل أن يُشاع عنها سوء السلوك وسوء السمعة فيما يتعلّق بالسحاق بينهنّ

(اللاتي) ولذا فالمنع لها ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ ﴾ النساء15.

- أمّا ما يتعلّق بالرجال (الشذوذ الجنسي) فالإيذاء ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦ ﴾

- وقد تكون الزانية زوجة مطلّقة لا تزال في العدّة فمن حقها البقاء في بيت الزوجيّة فعقابها الطرد مع المائة جلدة ﴿ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ ١ ﴾ الطلاق1.

- وهناك عقوبة أخرى للزوجة المطلّقة إن أتت بفاحشة وهي أنه من حقّ الزوج أن يمنعها عن الزواج إلى أن تدفع له بعض ما أعطاه لها في الصداق أو المؤخر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ ١٩ ﴾ النساء19.

- والمرأة الزانية التي لا تتوب لايتزوّجها المؤمن وتلك عقوبة إضافيّة ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣ ﴾ النور3.

وبعد هذا البيان الواضح في تشريعات القرآن الكريم هل هناك من مجال لما يسمى بعقوبة الرجم تلك التي تسللت من التشريعات التوراتيّة عبر الأحاديث الكثيرة لآية (الشيخ والشيخة)

لقد جاءت هذه الآية التي يقولون عنها إنها نسخت لفظا وبقيت حكماً على اختلاف الروايات ، فعن عائشة والإمام أحمد وعمربن الخطاب (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة نكالا من الله والله عزيز حكيم)... وعن خالة ابن أبي أمامة بن سهل بن حنيف (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما بما قضيا من اللذّة) وفي رواية (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله ورسوله) وفي حديث أبي بن كعب (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة نكالا من الله والله عليم حكيم).

ومع هذا الاختلاف فإنّ المرأة في النص القرآني لا يقال لها شيخة بل عجوز﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ ﴿قَالُوٓاْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ ولكنّا نجد مثل هذا الاستخدام في التوراة ففي سفر التكوين 18: 11 " وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدّمين في الأيّام.". فهو

استخدام توراتيّ وليس قرآنيا. كما نجد استخدام مفردة (البتّة) في التوراة التكوين 39: 23 " ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئا البتّة ممّا في يده "

ورواية مالك في الموطأ رقم 692 يرويها عن ابن شهاب الزهري الذي يروي الحديث بنفسه مع أنّ ابن شهاب الزهري عاش في نهاية العصر الأموي وكان من التابعين ولم ير النبي صلى الله عليه وسلم ولم يدرك عصره ومع ذلك نقرأ في الموطأ (أخبرنا مالك أخبرنا ابن شهاب أنّ رجلاً اعترف على نفسه بالزنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد على نفسه أربع شهادات فأمر به فحد، قال ابن شهاب: فمن أجل ذلك يؤخذ المرء باعترافه على نفسه).

ولم يقتنع المنكرون لحد الرجم بحديث الموطأ (ت197هـ) فإذا بالبخاري (ت256هـ) يأتي برواية أخرى تقول إنّ أحدهم سأل عبدالله بن أبي أوفى وهو من الصحابة المتأخرين (هل رجم رسول الله؟ فقال: نعم، قلت : قبل سورة النور أم بعد؟ قال: لا أدري)

وهكذا كان هناك إصرار من المنكرين لعدم وجود الرجم دفع لجمع عدد من الأحاديث لتأييد وجوده، فإذا وضعت الأحاديث عن رسول الله ألا توضع عن عمر وعائشة..

وقد أورد الدكتور مصطفى محمود في أحد مقالاته في جريدة الأهرام تسعة أدلّة تثبت عدم وجود عقوبة الرجم في الإسلام، وقد نقلها الدكتور أحمد السقّا في كتابه (لا .. رجم للزانية) نوردها باختصار:

- أنّ الأمة إذا تزوّجت وزنت فإنّها تعاقب بنصف حدّ الحرّة والرجم لا ينتصف
- أنّ البخاري روى في صحيحه في باب رجم الحبلى:(عن عبدالله بن أبي أوفى أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم رجم ماعزا والغامديّة. ولكنّنا لا ندري أرجم قبل آية الجلد أم بعدها) فإذا كان النبي قد رجم قبل نزول القرآن بالجلد لعموم الزناة فإنّ الرجم يكون من قبل نزول القرآن وبالتالي يكون القرآن قد ألغى حكمه ويكون الجلد هو الحكم الجديد بدل حكم التوراة القديم الذي حكم به – احتمالا – أمّا إذا رجم بعد القرآن فإنه مخالف القرآن لا مفسّرا له ، ولا يصح لعاقل أن ينسب للنبي أنّه خالف القرآن.
- إنّ الله تعالى بيّن للرجل في سورة النورأنّه إذا رأى رجلا يزني بامرأته ولم يقدر على إثبات زناها بالشهود فإنه يحلف أربعة إيمان أنّه رآها تزني إذا هي ردّت أيمانه عليه بأن حلفت أربعة أيمان أنه من الكاذبين فلا يقام عليها الحد، وجه الدليل أنّ هذا الحكم لامرأة

محصنة وقد جاء بعد قوله تعالى (الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة).

- عقوبة نساء النبي مضاعفة أي مائتي جلدة فالموت لا يضاعف
- **قوله تعالى** ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤ ﴾ **فذكر** حدّ القذف ثمانين جلدة بعد ذكر حد المائة جلدة وعدم ذكر الحد الثقيل الرجم دلالة على أنّه غير مشروع.
- الإمساك في البيوت لا يكون بعد الرجم ، فهذا دليل على عدم وجود الرجم، بل الحبس في البيوت بعد الجلد إلى الموت أو إلى التوبة من فاحشة الزنا.
- قوله تعالى ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً ﴾ هنا حرّم الله الزانية على المؤمن وهذا يدلّ على بقائها حيّة من بعد إقامة الحدّ عليها وهو مائة جلدة.
- يقول العلماء إنّ الخاص مقدّم على العام. ثمّ يقولون : والقرآن عام، ثمّ يقولون : وفي القرآن آيات تخصّص العام. أمّا قولهم بأنّ العام في القرآن يخصّص بقرآن فهذا هو ما اتفقوا عليه، وأمّا قولهم بأنّ الأحاديث تخصّص عام القرآن فهذا الذي اختلفوا فيه لأنّ القرآن قطعيّ الثبوت والحديث ظنّيّ الثبوت، وراوي الحديث واحد عن واحد عن واحد ولا يصحّ تخصيص عام القرآن بخبر الواحد. وعلى ذلك

فإنّ قوله تعالى ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ ﴾ حكم عام يشمل الجميع محصنين أوغير محصنين، فهل يصحّ تخصيص العام الذي هو الجلد بحديث يرويه واحد عن واحد في الرجم ؟.

يقول فخر الدين الرازي : إنّ قوله تعالى ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ ﴾ يقتضي وجوب الجلد على كلّ الزناة. وإيجاب الرجم على البعض بخبر الواحد يقتضي تخصيص عموم الكتاب بخبر الواحد وهو غير جائز لأنّ الكتاب قاطع في متنه والمقطوع راجح على المظنون. ولو أنّ رواة الأحاديث قد اتفقوا على الرجم والنفي(التغريب) لأمكن أن يقال إنّ إجماعا من المسلمين موجود عليهما، ولأنهم لم يتفقوا وقع الريب في قلوب المسلمين جهة الرجم والنفي. وفي الحديث (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك). والله أعلم وهو من وراء القصد.

الجزء الثاني الخطاب الديني والمشكاة الواحدة

(القصص التشريع)